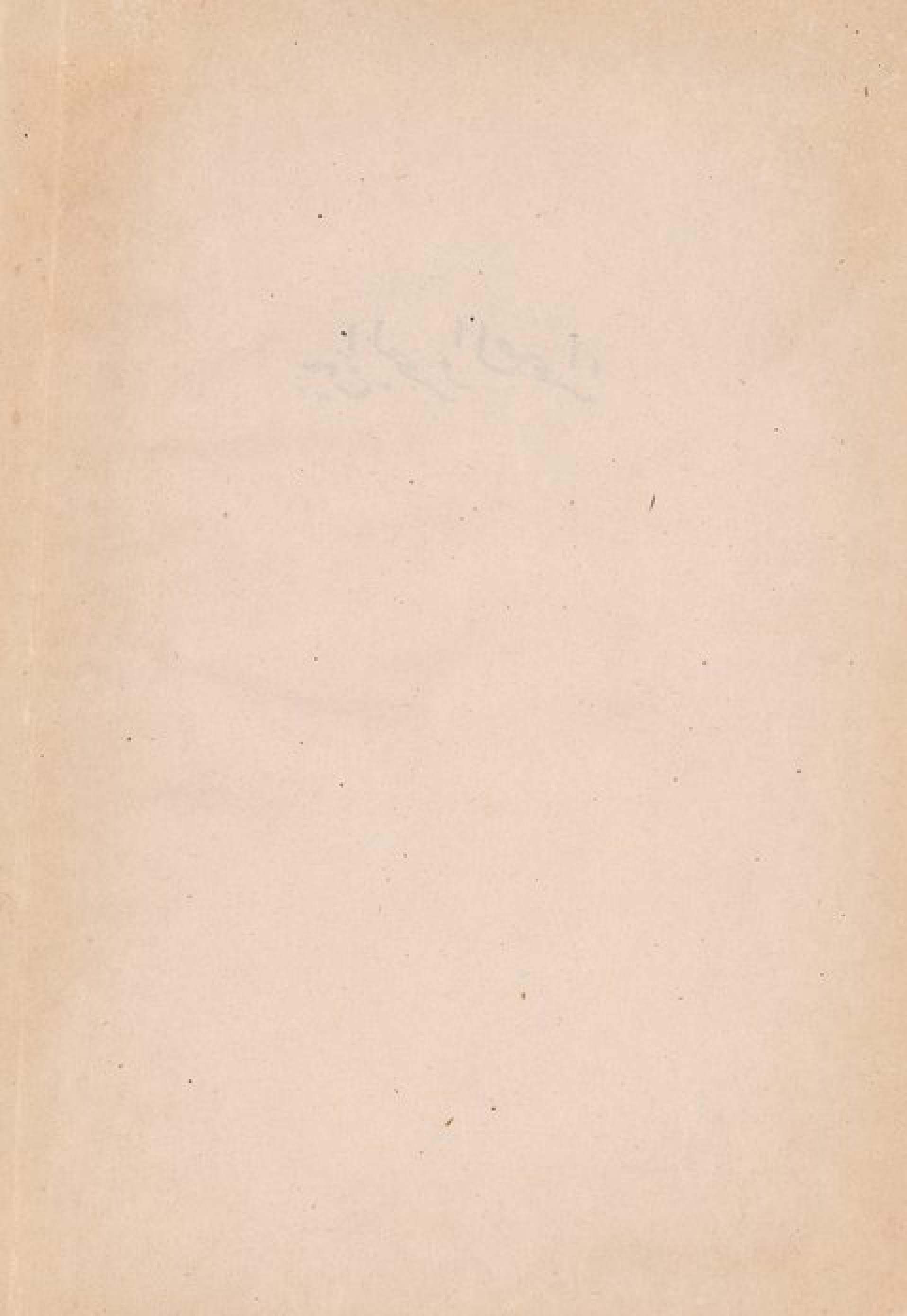



1 - Jun 70
JAFET LIB.
18 OCT 1977
J. LIB.
14 APR 1985
18 JUN 2002

بين البحر والصحراء



شفيق جبري

بين البحر والصحراء

اقرأ ٤٩

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٩ — ديسمبر سنة ١٩٤٦



فاتحة القول

في صحارى جزيرة العرب نبتت أصول لغتنا التي حفظت لنا مبادئ ذوق العرب وحسهم وشعورهم وعاطفتهم وفكرهم؛ وما زالت هذه اللغة تدرج من بدو إلى حضر حتى بلغت أمواج بحر الروم، فدفعت إليها هذه الأمواج ما تحمله من فلسفات وعلوم.

فهل أستطيع في هذا الكتاب أن أتنقل بالقارئ الكريم بين البحر والصحراء، فنتمتع بقليل من مشاهدها الفنية والفكرية: حس الطبيعة، الأدب النفسي، الأدب الوطني، فنوازن ولو موازنة يسيرة بين هذه المشاهد المختلفة، فإذا استطعت شيئاً من ذلك فقد بلغت ما أريد؛ أما الذي أريده فهو ليس بشيء أكثر من أن يظل أدبنا على تراخي الأحقاب ملء الذهن والقلب والنفس.

نزهة فى جزيرة العرب

من كلام بعض الإفرنجة : « حبُّ الماضى مولود فى الرجل ، وإذا بحثنا عن السبب الذى من أجله يتلفت خيال البشر بأجمعه ، الزاهى منه والذابل ، الـكئيب والفرح ، عن الحاضر إلى الماضى ، وينبسط إلى الخوض فيه ؛ وجدنا أن الماضى إنما هو نزهتنا الوحيدة ، والمكان الفرد الذى نستطيع فيه الإفلات من مضاجرنا ومن آلامنا ، ومن أنفسنا » .

فما أكثر المضاجر والآلام فى يوم مثل يومنا ! وما أمس حاجتنا إلى الهرب مما يقلق أنفسنا ويؤلمها بعد حرب ما عرف البشر نظيرها فى تاريخهم ، فلنجتهد فى التفتيش عن بقعة من ماضينا نعيش فيها ساعة من الزمن ، لعلنا نجد فى هذه البقعة عبرة لنا أو فرجة أو فائدة . وأظن أن أفضل بقعة نفزع إليها إنما هى البقعة التى انحدرت إلينا من أفيائها عروبيتنا ولغتنا وأدبنا ، فلنسرح فى صحارى الذين أورثونا هذه العروبية وهذه اللغة وهذا الأدب ، ولنتمتع من طبيعة هذه الصحارى فلعلنا نستريح من

حضارة غلب العلم فيها على الأخلاق ، فكانت غلبته سبباً فى فناء الناس وتهديم المدن وتقسية القلوب !

***

كتب لى فى سنة ١٩٣٥ أن أضرب فى منازل بنى تميم فى نجد وهى الدهناء ، وأن أبيت — فى ليلة من ليالى الشتاء الراعبة — على جوانب الزبيدية ، وهى بركة بين بغداد ومكة ، وأن أفترش ذراعى فى ظلام الليل على مقربة من جبلى طيء ، وهما : أجأ وسلمى . لقد ضربت فى طائفة من قفار جزيرة العرب ، ورأت عينى صفات هذه القفار فى الاتساع والاستواء والبعد والغلظ والصلابة والسهولة والارتفاع والانخفاض وغيرها من الصفات ، فأحطت بعض الإحاطة بيسير من رمال الجزيرة وجبالها وترابها وغبارها ورياحها وآبارها وبرقها ورعدها ومطرها ونباتها ، فما كدت أخرج من سواد العراق ، من ظلال هذه النخل الباسقات على ضفاف دجلة والفرات حتى انقطعت عن كل حضارة وعن كل عمران ، فلم أر إلاّ وحشة فى الأرض والسماء ، ولئن كنت عاجزاً عن تصوير هذه الوحشة فلم يعجز « بوفون » عن هذا التصوير ، فقد قال فى وصف صحارى البتراء : « تصوّر

بلداً لا خضرة فيه ولا ماء، وشمساً محرقة، وسماء مُجهمة، وسهولا من رمال، وجبالاً جرداً تقع عليها العين ويضيع فيها البصر من دون أن يرى أى شئ حى، وأرضاً ميتة عرّتها الرياح لا تجد فيها إلا عظاماً وحصىً مبعثراً وصخراً منتصباً أو مقلوباً وقفراً مكشوفاً لا يتنفس فيه المسافر تحت ظل من الظلال ولا يصحبه فيه إلا ظله وحده، لا شئ يذكّره الطبيعة الحية، عزلة تامة أرهب من وحشة الغابات، فالغابات لا تخلو من الأنس لأنها مخلوق من المخلوقات، فالإنسان يرى نفسه فى هذه الصحارى وحيداً منعزلاً مجرداً تائهاً فى مواضع خالية لا حدود لها، ينظر إلى الفضاء وكأن هذا الفضاء قبره، إذا أضاءت الشمس كان ضياؤها أكأب من ظلمة الليل فلا يمتد هذا الضياء إلا ليفضى عُرْىَ الرجل وعجزه، أو ليذكره هول حاله إذا بسط لعينيه عظمة المسافات التى تفصله عن الأرض المأهولة، وهى مسافات يحاول عبثاً أن يقطعها لأن الجوع والعطش والحر يجعله فى كل مسافة منها واقفاً بين اليأس والموت!».

هذه الصورة الناطقة تكاد تكون صورة صحارى جزيرة العرب بمجامعها، وعلى الرغم من هذا كله فقد رزقت العرب ما نسميه

فى هذا العصر : حس الطبيعة ، فتغنى شعراء جاهليتها بمحاسن أرضهم وسمائهم ، فانبثق نور من ظلام براريها وخرج مرح من عبوس آفاقها وتدفق بشر من تجهم سمائها وجاء خصب من جدب أرضها .

حسُّ الطبيعة

١

فى الجاهلية

إذا كان يتعذر علىَّ فى فصل مثل هذا الفصل أن أستقصى فى ذكر الشعراء الذين حسُّوا الطبيعة فى الجاهلية وشعروا بفتنتها، فلا يتعذر علىَّ أن أضرب بعض أمثال لهذا الحس والشعور. لم يجمد امرؤ القيس فى مشاهد الطبيعة ، فإذا تحرك البرق فى السماء فتحركه فى شعره يحكى تحرك اليدين ، وإذا أضاء فضوءه يحكى ضوء مصباح الراهب إذا أفعم صَبُّ الزيت عليه ، ففى مشاهد مثل هذه المشاهد يهتز امرؤ القيس فيدعو أصحابه إلى مشاركته فى هذا الاهتزاز، يدعوهم إلى أن ينظروا إلى السحاب وأن يرقبوا مطره ويشيموا برقه ويتأملوا عظم السحاب وغزارته وعموم جوده ، ثم لا نراه يغفل عن فعل السحاب فى الأرض . ما هو هذا الفعل ؟ ينصبّ سيل هذا الغيث من الجبال والآكام فيقلع الشجر العظام ، ثم ينزل الأوعال العُصْم من الجبال من

شدة وقع مطره عليها وفرط انصبابه ، ثم لا يترك هذا الغيث شيئاً من جذوع النخل أو من القصور والأبنية إلاّ ما كان منها مرفوعاً بالصخور أو مجصّصاً ، وقد يجد امرؤ القيس أن هذه الصور غير ناطقة ، فينفخ فى السحاب بعض الروح ، فيرى أن الجبل الذى ينزل المطر عليه مثل سيّد قوم قد تلفف بكساء مخطط أو مثل أكمة تشبه لما أحاط بها من أغشاء السيل فلكة مغزل ، ثم يمعن فى هذا الضرب من التصوير ، فكأن المطر فى نزوله تاجر يمانٍ وكأنّ أصناف النبات الناشئة عن هذا المطر أنواع من الثياب التى ينشرها هذا التاجر عند عرضها على البيع . وبعد أن يفرغ من الإشارة إلى آثار المطر فى الجماد والنبات يشرع فى وصف آثاره فى الحيوان فكأن المكاكى قد سقيت بعد هذا المطر سلافاً من رحيق مفلفل فى الأودية التى نزل المطر فيها لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها ونشاطها فى تغريدها ، وإذا ترك الطير انتقل إلى السباع فكأن هذه السباع حين غرقت فى سيول المطر أصول البصل البرى لتلطخها بالطين والماء الكدر .

وكما لم يخل شعر امرىء القيس من حسّ الطبيعة فكذلك لم يخل شعر لبيد من هذا الحس ، فقد تغنى لبيد بديارٍ ودمن

رزقت أمطار الأنواء الربيعية فأمرعت وأعشبت لترادف الأمطار المختلفة عليها؛ فمن هذه الأمطار مطر سحابة سارية، ومنها مطر سحاب غاد يلبس آفاق السماء بكثافته وتراكمه، ومنها مطر سحابة عشية تتجاوب أصواتها. ماذا فعلت هذه الأمطار فى الأرض؟ لقد أخرجت ضروباً من النبت وأصبحت الظباء والنعام ذوات أطفال بجانبي الديار التى تغنى بها لبيد، ثم كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها، فكأن هذه الديار كتب تجدّد الأقلام كتابتها!

أما عنترة فبعد أن شبه طيب نكهة حبيبته بطيب روضة ناضرة لم ترع ولم يصبها سرجين ينقص طيب ريحها ولا وطئتها دواب تنقص نضرتها أخذ يصوّر السحابة التى مطرت على هذه الروضة، فقد مطرت عليها كل سحابة سابغة المطر لا برد معها، أو كل مطر يدوم أياما ويكثر ماؤه حتى تركت كل حفرة كالدرهم لاستدارتها بالماء وبياض مائها وصفائه، وفى كل عشية يجرى عليها ماء السحاب ولم ينقطع عنها، وقد حلّ الذباب بهذه الروضة فلا يزايلها ويصوّت تصويت شارب الخمر حين رجع صوته بالغناء، وهو يصوّت حال حكه إحدى ذراعيه

بالأخرى مثل قدح رجل ناقص اليد قد أقبل على قدح النار .

* * *

هذه نماذج مختلفة من حس الطبيعة فى شعر الجاهلية ، ولقد رأينا فى نزهتنا فى جزيرة العرب قحط الأرض وعبوس السماء ، فإذا كان تصوير المطر أبرز شىء فى حس الطبيعة فى الجاهلية فالسبب فى هذا عظم منزلة المطر والنبات فى الصحارى . على هذا المطر وهذا النبات تتوقف حياة القبائل والمواشى ، فعلى الرغم من موت الطبيعة فى صحارى الجاهلية كانت هذه الطبيعة مادة وحى للشعراء . وإذا رجعنا من نزهتنا فى جزيرة العرب بنتيجة من النتائج فإنا نرجع بالنتيجة الآتية : لقد أعطى العرب جزيرتهم أكثر مما أعطتهم ، أعطتهم الشيح والقيصوم والسور والسلم والعرفج والرند والعرار فجعلوا من هذا النبات فى شعرهم ما يشبه الحدائق الغلب حتى يقول كل واحد منا فى نفسه : كيف ينشأ حس الطبيعة فى صحارى جزيرة تظهر آثار الموت على كل ناحية من نواحيها !

٢

فى القرآن

والقرآن نفسه لم يكن بعيداً عن حسّ الطبيعة ، أفلا نذكر الآيات التى تشير إلى انفطار السماء وانشقاقها وإلى انتثار الكواكب وانكدار النجوم وتكوير الشموس وتفجير البحار وتسيير الجبال ونسفها وعسعسة الليل وتنفس الصبح وعصف الريح الصرصر العاتية و إلى السدر المخضود والطلح المنضود والظل الممدود والماء المسكوب والسحاب المركوم والبحر المسجور .

وزيادة على هذا كله كان القرآن الكريم يدعو الناس إلى الطبيعة ، فمرّة يدعوهم إلى سمائها : «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .

ومرّة يدعوهم إلى حدائقها : « وهو الذى أنزل من السماء ماء

فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضِراً نخرج منه حبًا
متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب
والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر
وينْعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

٣

بركة البحترى وبحيرة «لامارتين»

إلاَّ أنَّا إذا أردنا أن نلمس حسّ الطبيعة فى أدبنا وأن نوازن بينه وبين بعض حس الطبيعة فى أدب الإفرنجة لزمنا أن نبعد قليلاً عن صحارى الجاهلية وأن نجعل نزهتنا فى قصور بنى العبَّاس وعلى شواطئ البحيرات وفوق عباب البحار بين عصف الرياح وضجيج الموج، فإنا نرى فى نزهتنا الجديدة أن حس الطبيعة قد دخل فى طور غير طوره الأول، فبدلا من أن نشم فى الشعر رائحة شيح الصحراء وقيصومها فإنا نشم روائح الورد والنرجس والآس وغيرها، وبدلا من أن نصعد فى جبال من رمال فإنا نشق جبالا من الأمواج، وليس من الضروى أن أذكر فى هذا المقام كثيراً من الشعراء الذين أفرغوا حس الطبيعة فى شعرهم فى قوالب تختلف عن قوالب امرئ القيس ولبيد وعنترة، وإنما أجتزئ ببعض أنماط من أقوالهم لعلنا نهتدى إلى يسير من الفرق بين أدبنا فى هذا الباب وبين الأدب المنحدر إلينا من وراء البحار.

فلنسرع إلى حدائق البحترى وإلى بركته وبحيرة «لامارتين».

أنس أبو عبادة البحترى بكل منظر من مناظر الطبيعة فتغنى بالربيع وهو ينمنم وشى حلتها الخضراء وبالخريف وهو ينسج لها حليتها الصفراء واستوفت عينه حظها من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد وتملت أذنه قِسمها من هديل حمامها وحفيف ورقها وضجيج بحرها وزجل رعدها ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها وودها وآسها وزعفرانها وأقحوانها ، فقد ملأ شعره من كل جزء من أجزائها ، من ذهب شمسها وفضة مائها ومن ركام ثلجها على الجبال واندفاق غيثها فى غداة مخضلة أو عشى مبتل .

لقد صقلت خياله نواح كثيرة فى هذه الطبيعة فما فتح عينيه فى صباه حتى رأى بلدته منبج ، فتمتع من طيب هوائها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وصحة تربتها ، وما نشأ وترعرع حتى سرح فى أهاضيب لبنان وغوطة دمشق وبساتين حلب وجنات الساجور ونخيل العراق ، وعكف على قصور بنى العباس كالجعفرى والصبيح والمليح ، فتكامل خياله فى أفياء حيطان من زجاج وسقوف من ذهب وبرك من رخام ، فنشأت عن هذا كله بينه وبين الطبيعة صلة محكمة ، فقد فهم لغتها وألحانها وعرف وجوهها

وألوانها ، فكان شعره قطعة من هذه الطبيعة .

كان يلجأ إلى الطبيعة فى كل حال يفتش فيها عن صورة من صور أحبته ، فلا يستلهمها لوناً من الألوان إلا ألهمته إياه ، ولا يستوحيها إلا أوحت إليه ، فكان لا يرى ضحك الأقاحي إلا رأى وراء هذا الضحك رضاباً بروداً ، وكان لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى فى أضعافها جنوح حبيبته لوشك بعد أو فراق ، وكان لا يرى تعطف أملود البان إلا رأى فى ظلاله ميل هذه الحبيبة إلى العناق ، وما كان يبدو له صحن العراق وتكشف له سجوف الدجى عن ماء العراق ونخيله ويهدل الحمام فى جنباته إلا ذكرته هذه المشاهد كلها أحبابه .

لقد غمره حب الطبيعة لأنها تشتمل على صور ترضى عينيه وأنفه وأذنه ، فلولا هذا التناسق بينه وبين الطبيعة لما وجد لها معنى من المعانى ، فأى معنى لتنفس الروض فى جنح بارد من الليل لو لم يذكره هذا الروض أنفاس أحبته ! وأى معنى لترقرق الندى فوق الشقائق لو لم تحمل هذه الشقائق دموع التصابى فى خدود الأحباب ! وأى معنى لمعان البرق لو لم يكن هذا اللمعان ابتسامة من الابتسامات !

على أنه كان ينفصل فى بعض الأحايين عن حواسه فلا يريد أن يرى فى الطبيعة صوراً تهز هذه الحواس ، وإنما كان يريد أن يرى لها حياة مستقلة ومزاجاً منفرداً ، فإذا رأى الربيع رأى له وجهاً يضحك ولساناً ينطق ، وإذا رأى النوروز فى غلس الدجى رأى ورداً نائماً ينبهه هذا النوروز ، وإذا رأى برد الندى رأى وراءه صدراً ضيقاً بحمل الحديث فلا يلبث أن ينث هذا الحديث المكتم .

غير أنه سرعان ما يعود إلى عادته من الاتصال بالطبيعة فينكر عليها الاستقلال بالحياة ولا يرى فيها إلا صور أحبته ، فلا تتعطف أشجار قصر من قصور الخليفة إلا كان هذا التعطف صورة مشى العذارى فى عشية من العشايا .

ولم يقتصر على التعلق بالطبيعة لأن فى كل جزء من أجزائها صورة أحبته وإنما تعلق بها لأنها تمثل له أشكالاً يفتقر إليها فنه ، فلما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه ، فقد أروت طائفة من فنه ، فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج فى قصر من قصور بنى العبّاس إلا مثلت له هذه الحيطان لجج البحر وهى تموج على الساحل ، وكان لا يرى تفويف الرخام فى هذا القصر إلا رأى

فى هذا التفويف حبك الغمام وقد رصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة وكان لا يرى الذهب الصقيل الذى لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضىء على الظلام ، فكانت الطبيعة مادة حسه ومادة فنه ، فألهمت هذا الحس ضروب الاهتزازات والابتسامات والتعطفات وألقت على هذا الفن حَليَها وحللها ووشيها وديباجها .

ولكن الطبيعة أفسح من أن تكون مستودعاً لا يرى فيه الشاعر إلا صورة اعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، أو صورة سقوف من ذهب أو حيطان من زجاج ، فلم يصل البحترى شعوره بالطبيعة وإنما وصل بها حواسه ، فاتصل بها من ناحية المادة وانفصل عنها من ناحية الروح ، وإذا تداعى الحمام فى بعض الأحايين وبعث هذا الحمام فى قلبه كمين الأسى وصل البحترى دمعه بنوح الحمام ولكن قلبه بقى محجوباً عن الطبيعة ، وقد يزيد الغمام حيناً فى شوقه ويهيجه زجل الرواعد تحت الليل ولكنه كان لا يناجى هذا الغمام ولا يناغى هذه الرواعد ، فلم يقاسم الطبيعة همومها ولم تقاسمه همومه ، ولم يشركها فى أفراحها ولم تشركه فى أفراحه ، وإذا أردنا أن نعرف كيف نألف الطبيعة

وكيف يألفها الإفرنجة وجب علينا أن نقارن بين يسير من نظراتنا ونظراتهم إليها .

وقف البحترى على بركة الجعفرى قرب « سرَّ من رأى » فعدَّ هذه البركة واحدة وعد البحر ثانيها فى العظمة ، فماذا رأى على أحفة هذه البركة ، رأى دجلة فى جوانبها وهى غَيْرَى تنافسها فى الحسن طوراً وتباهيها طوراً ورأى جنّ سليمان قد أبدعوها وأدقوا فى معانيها ، ورأى ماءها وكأنه الفضة البيضاء تسيل من سبائكها ورأى الصبا تعلوها فتبدى لها حبكاً مثل الجواشن قد صقلت حواشيها ورأى الشمس تضاحكها والغيث يباكيها ورأى سماء ركبت فيها من النجوم ورياضاً تحيط بها كأنها ريش الطواويس !

كل هذا حسن ! وكل هذا يلهى العين والأذن ؛ ولكن أفلا نجد على صفحات الماء إلا صوراً مادية ، أفلا يكون للقلب نصيب واف من فيض شعوره على هذا الماء !

وقف البحترى وقفته هذه ووقف بعض شعراء الإفرنجة على البحيرات ، فهل تشبه وقفة « لامارتين » على بحيرته وقفة البحترى على بركته ، إنى لا أحفظ إلا قليلاً من شعر « لامارتين »

فى بحيرته ، ولكن هذا القليل كاف على ما أعتقد فى بيان مبلغ فهمنا للطبيعة وفهم الإفرنجة لها .

ما الذى يهم « لامارتين » فى نزهته على بحيرة « بورجه » مع حبيبته « إلفير » ؟ إن الذى يهمه إنما هو أن تذكر هذه البحيرة أن « لامارتين » كان يجدف أمواهها مع حبيبته فى شىء من الصمت والهدوء وأن الآذان كانت لا تسمع على وجه الماء وتحت السماء إلا جَلَبة المجاديف التى كانت تصدم متناسق الأمواج ، ماذا كان يسمع «لامارتين» على هذه البحيرة ؟ كان يسمع أصواتاً تجهلها الأرض ، تأتى من ساحل البحيرة فتشق الأمواه ، كان يسمع أصواتاً يصغى الموج إليها كل الإصغاء ، ماذا فى هذه الأصوات ؟ فيها خطاب للأزمان والساعات ، فكأنها تطلب إليها أن تخفف سيرها ، وأن تفسح للامارتين فى التمكن من ذوق اللذات السريعة التى تحملها أيامه الحسنة ، ماذا كان يرى «لامارتين» على هذه البحيرة ، كان يرى صخرات خرساً وغابة مظلمة ، فكان يطلب إلى هذه البحيرة و إلى هذه الصخرات و إلى هذه الشجرات التى يبقى عليها الزمن أو يجدد لها شبابها ، كان يطلب إليها و إلى الطبيعة الحسنة أن تحتفظ بذكرى هذا اليوم

الطيّب الذى قضاه مع حبيبته على وجه الماء !

نفخ « لامارتين » روحاً فى الطبيعة من عنده وأشركها فى آلامه وأحلامه ، فوصل بها كل ناحية من نواحى قلبه ، كان يجد فى هذه الطبيعة معبداً ، يسمع فيه على عزلته وعلى هدوئه أصواتاً تعلمه بما عند الله ، فالذى يجده فى الطبيعة إنما هو الرفق والهدوء والتناسق ، أى كل ما يبسط القلب ويرقّقه ، وكل ما يحمل النفس على طول التأمل والأحلام ، أمّا البحترى فلم يجد فى الطبيعة إلا ما يسرّ الأذن والعين والأنف !

على أى شىء يشتمل شعر التأملات ؟ لقد شغلت المرأة التى أحبها « لامارتين » قلبه فى كل هذا الشعر ، فإذا طلع القمر كان لا يجد فى ضوء هذا القمر إلا أرواح الموتى التى انحدرت إليه بأحاديثها ، وإذا نزل الوادى الذى قضى فى ظلاله ميعة صباه كان لا ينزله إلا ليريح نفسه الأليمة التى لم يبق فيها إلا الحب وحده ، وإذا تنزه على بحيرة « بورجه » مع حبيبته التى فقدها طلب إلى هذه البحيرة أن تحتفظ بذكرى سعادته السريعة ، وإذا طلع عليه الخريف وأضاءت هذا الخريف شمس مُمتقِعة عاد « لامارتين » إلى التلهف على الحياة وقد استعدّ للموت ،

وهكذا شأنه فى بقية أشعاره التى مزج فيها روحه بالطبيعة ، ففى شعر النجوم أعار هذه النجوم روحاً من عنده ، وعدَّ نفسه نجماً يلهم الناس الخير ، ويعزيهم : أيتها الشموس ! أيتها العوالم التائهة : قولى لنا أقال لك شيئاً ؟ أقال لك إلى أين نحن ذاهبون ؟

وفى شعر نبع الغابات نرى أن خرير الماء قد ولد فى ذهنه أفكاراً تشيع فيها التقوى والماليخولياء !

٤

بحيرة المتنبي

إذا كان البحترى لم يستطع أن يصل — فى نزهتنا على جوانب بركة الجعفرى فى « سرّ من رأى » — نفوسنا بموج هذه البركة كما وصل بها حواسنا فلننتقل إلى سواحل بحيرة طبرية فلعلّ المتنبىَ يعوّضنا فى أمواج بحيرات فلسطين ممّا فاتنا من اللذّة الروحية فى أمواج برك العراق !.

قدم المتنبىُ طبرية وضرب بعينيه على شواطئ بحيرتها ، فماذا رأى فى هذه البحيرة ، قال يخاطب علىّ بن إبراهيم التنوخى:

لولاك لم أترك البحيرة والغو ... رُ دفىءٌ وماؤهـا شبِم
والموج مثل الفحول مزبدةً ... تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بُلقٍ تخونها اللُجم
كأنّها والرياح تضربها ... جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنّها فى نهارها قمر ... حفّ به من جِنانها ظُلَم
تغنّت الطير فى جوانبها ... وجادت الأرضَ حولها الديمُ
فهى كماويّةٍ مطوّقةٍ ... جُرّد عنها غشاؤها الأُدُم

لم ير المتنبي من وجه الطبيعة على سواحل البحيرة إلاّ غوراً دفيئاً وماء بارداً، ولم ير من هذا الماء إلاّ موجاً هادراً، ولم ير فوق هذا الموج إلاّ الطير والرياح؛ فلا تكاد صور الجيش تفارق ذهنه لنشأته فى البادية على رؤية هذه الصور ولطول أُلفته إيّاها فى حروب سيف الدولة، فلم يسمع المتنبي تغريد الطير فى سماء طبرية وإنما رأى قتالها، ولم يسمع عصف الرياح فيها وإنما رأى ملاحمها. فلم تكن الطير والرياح تحت سماء طبرية فى نظر المتنبي مشاهد طبيعة تسلّى الأذن والعين وإنما كانت مشاهد معركة: جيش هازم وجيش منهزم، خلق المتنبي لتخليد المعارك التى اقتحمها سيف الدولة فمنع بها غوائل الروم عن ديار الشام، ولما لم يجد المتنبي فى أرض طبرية حرباً يشهد هولها كما شهد هول حروب الروم من وراء حلب خلق فى سماء طبرية حرباً تلهو بها عينه وأذنه ولكن بدلا من أن تكون هذه الحرب بين العرب والروم كانت بين الطير والرياح وهى حرب هادئة لم ينفجر فيها دم ولا انتثر فيها عظم وإنما انهزمت فيها الطير مرّة والرياح مرّة فلم يصبغ وجه طبرية بسببها بحمرة الدماء.

٥

بحيرة ابن الساعاتي

فلنبعد قرنين أو أكثر عن سيف الدولة وعن المتنبيء وعن حروب العرب والروم لنشهد حروباً ثانية بين العرب والصليبيين، ميدانها بقعة من فلسطين، فعلنا نهتدى تحت سماء طبرية إلى شاعر أوحت إليه البحيرة غير ما أوحته إلى المتنبيء، فنجد فى حسّ الطبيعة فى شعره من اللذّات الروحية ما لم نجده فى أبيات المتنبيء.

ذهب سيف الدولة وجاء صلاح الدين، ولئن كان سيف الدولة مانعاً للروم عن التغلغل إلى ديار الشام لقد كان صلاح الدين مانعاً للصليبيين عن مثل هـذا التغلغل، فهل رُزق شعراء صلاح الدين من الخصائص فى حس الطبيعة ما لم يرزق الذين تقدموهم.

يخطر ببالى فى هذا المقام شاعر واحد من شعراء صلاح الدين وهو ابن الساعاتى الدمشقى، فماذا أوحت إليه طبرية وبحيرتها؟

لمّا فتح صلاح الدين طبرية سنة ٥٨٣ قال له ابن الساعاتى:

وما طبرية إلاَّ هـــدَى ترفَّعُ عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء وسلْ عنها الليالىَ والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا يصدُّ الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صمَّ العـوالى فكان نتاجها الحرب الزبونا
قستْ حتى رأت كفؤاً فلانت وغاية كل قاسٍ أن يلينا

***

لئن شهدنا فى تغنى المتنبىْ ببحيرة طبرية حرباً من الحروب، لقد شهدنا فى تغنى ابن الساعاتى بها عرساً من الأعراس، وقد كان يستطيع ابن الساعاتى أن يجعل لموج البحيرة ولطيرها ولرياحها ولجنانها نصيباً من هذا العرس، ولـكنه عدل عن هذا كله ولم نجد فى عرسه من أدوات اللهو والغناء كالعود والناى وأشكالهما ما نجده فى الأعراس عادةً، وإنما أدواته صمُّ العوالى. وأخلق بعرسٍ من أدواته السيوف والرماح أن يكون قاسياً ولكن صلاح الدين حاذق فى تليين القاسين، وحسبنا أن نخرج من أبيات ابن الساعاتى بهذه النتيجة وحدها، فهى تكاد تكون خلاصة عهد صلاح الدين!

٦

بحيرة « لوتى »

لقد عرفنا شيئاً يسيراً من خصائص شعر المتنبيء وابن الساعاتى فى بحيرة طبرية ، فإذا أردنا أن نعرف ما يفتقر إليه حس الطبيعة فى شعرهما فلنسرع إلى كاتب غربى زار طبرية .

مرّ « لوتى » ببقاع الجليل من نصف قرن ، وما زال ينتقل من يافا إلى القدس ومن القدس إلى نابلس ومن نابلس إلى الناصرة حتى وصل إلى طبرية ، فلنصحبه فى خروجه من الناصرة وانحداره إلى طبرية لنعلم كيف نظر إلى الطبيعة .

مرّ « لوتى » بهذه النواحى كلها ، فرأى بقاعاً خالية صامتة ، هادئة ولا هدوء الموت ، كئيبة ولكن كآبتها لطيفة ، ثم خرقت عينه شيئاً أبعد من الصمت والهدوء والكآبة فرأى الدم الفرنسى الذى جرى على تراب فلسطين أيام الصليبيين وأيام نابليون !

وما انحدر « لوتى » من الناصرة ووقعت عينه على تلال « حطين » حتى نفخ فى هذه التلال روحاً نخلق لها عيوناً لترى بها عظائم الماضى ، وخلق لها آذاناً تسمع بها دوىّ هذا الماضى ،

فنرى فى أدبه صلاح الدين ينقض على الصليبيين فوق تلال حطين فيحصدهم حصداً فى يوم من أيام الصيف فتأتى على وقعة حطين سبعة أو ثمانية قرون فنرى صلاح الدين بعد هذه الأحقاب المديدة فى فسطاطٍ عظيم يتلقى المغلوبين من الصليبيين وقد جهدهم العطاش فيسقيهم شراباً مثلوجاً ، ثم يذبحهم ذبحاً فيجرى دمهم على الأرض ويروى هذا الدم عشب الأرض حتى هدأةٍ من الليل !

يخلص « لوتى » من هذه الذكرى الأليمة فيرجع إلى الطبيعة ، فينفخ فيها روحه ، فقد أتت على تلال حطين سبعة قرون وهى جامدة صامتة ، لم يطأ عشبها الا الرعاة وأبناء السبيل .

ولكن فلننحدر مع « لوتى » من حطين إلى طبريّة ، فما كادت عينه تقع على بحيرة طبرية حتى أحسّ بخوف الدنوّ منها وبانصرافه إلى فكرة دينية ، فإن هذه البقاع تُخطر سيدنا عيسى ببال الإنسان كما تخطر القبور الخرس موتاها بهذا البال .

شرع « لوتى » يخرج من ظواهر الطبيعة على بحيرة طبرية ليمعن فى بواطنها ، شرع ينسى وجهها ليرى جوفها ، والسيد المسيح أول خاطر يخطر ببال المرء على شواطىء البحيرة ، فأين جماهير

الناس التى كانت تستيقظ من نومها لتسمع مواعظ المسيح ، لقد أحسنت الطبيعة الخضراء بتكفينها الأرض التى رأت تلك الجماهير .

ثم يترك « لوتى » هذه البواطن كلها ويرجع إلى الظواهر ، فينفخ فيها من روحه ، فلا حركة فى هذه الربوع ولا ضوضاء ، إنك لاتجد فيها إلاّ سلاماً يشبه سلام أهل الجنة وكآبتهم ، فالطير تغنى ويسمع « لوتى » غناءها ولكن هـذا الغناء لا يلبث أن يضيع فى صمت الطبيعة تحت هذه السماء الشاحبة ، سماء التأمل والحلم ، ففى هذه البقعة هدوء لا تستطيع الألفاظ أن تصوره ، هدوء سماوى يستفيض فى مهد النصرانية ، حتى أن « لوتى » نفسه يضطر فى مثل هـذا السكون إلى تخفيف صوته من دون إرادة منه كأنّه فى معبد من المعابد !

إن ألفاظ الأمل والمحبة التى سمعها البشر قديماً على بحيرة طبرية قد طارت فى سماء ثانية وشاعت فى الأرض لتعزّى البشر فى أحقاب طويلة ، فهى ألفاظ ميتة كما ماتت شواطىء هـذه البحيرة ، ولكن اللهفة عليها لم تمت فإنها خالدة فى أعماق نفس « لوتى » ، وطبرية على الرغم من كل شىء تبقى وطنه المقدّس.

رأى « لوتى » فى طبرية ما رآه المتنبيء، فقد رأى مرآتها المطوّقة وسمع تغريد طيرها وتمتع من شميم زهرها، ولكنه رأى شيئاً أبعد من هذه الظواهر الجامدة، فليس من السهل على أن ألخص فى سطورٍ ما توسع فيه « لوتى » فى صفحات. إنه يقدّس الطبيعة تقديساً، ويحييها إحياء، فكأنك تشاهد على شواطئ البحيرة جماعة الصيادين الذين كانوا يحيطون بالسيد المسيح ويسمعون رسالته وكأنك تسمع السيد المسيح يتكلم على المحبة وعلى الرحمة وعلى الصفح، تسمع كلامه كما سمعته القصبات الممتدة على الشواطئ وكما سمعه صخر البحيرة !

٧

عواصف صقلية وسردانية

أما وقد فرغنا من نزهتنا على سواحل ماء هادئ ، ماء البرك والبحيرات ، فلنسرع إلى عُباب البحر الثائر ، بحر العواصف ، ولنصحب بعض الذين ركبوا هذا البحر وملكهم الخوف من هوله !

فلننفصل مع ابن جبير عن غرناطة ولنركب معه مركباً للروم الجنويين ولنقلع إلى الإسكندرية ، فماذا أصاب هذا المركب لما فارق برّ سردانية ، هذا ابن جبير يقص علينا هول العواصف :

« عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام ، فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هولا وأعظم كرباً وزاد البحر اهتياجاً واربدّت الآفاق سواداً واستشرت الريح والمطر

عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقريّة فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ وأقمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور وسرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيراً سريعاً وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التى هى ليلة الخميس التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلمّا أسفر الصبح نشر الله رحمته وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ فى السكون البحر فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس » .

* * *

هذه صورة من صور العاصفة فى القرب من سردانية هبت عليه وهو منفصل عن غرناطة فلنشهد صورة ثانية للعاصفة التى هبت عليه فى القرب من صقلية فى خلال رجوعه إلى غرناطة :

« ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف

وزجّتها ريح عاصف وتقدّمها برق خاطف فأرسلت حاصباً من البرَد صبّته علينا فى المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوس ثم أسرع انقشاعها وانجلى عن الأنفس ارتياعها وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا بها اليأس من مكمنه فلمّا أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا برّ صقلية لائحاً أمامنا فيالها بشرى ومسرة ، لو لم يعد حسرة فى كرّة ، فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من دجنبر ونحن على إدراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجلٍ كتاب وميقات ، وكم أمل تعترض دونه الآفات ، فما كان إلّا كلا ولا حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب وحالت بين الأبصار والارتقاب ، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف فحطّت الشرع عن صواريها واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومُجريها وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظلم وعُباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته فنبذت نفوسنا كلّ أمنية وتأهّبت للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادفة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يالها من أحوال ، ثم أصبحنا يوم السبت

ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء ، وتمسكنا بأسباب الرجاء ، ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر وأسفر وجه الجو . . »

٨

عاصفة فى بحر الهند

وما علينا بعد أن سلمنا من عواصف صقلية وسردانية لو اقتحمنا عواصف بحر الهند ، فشهدنا أهوالها مع كاتب من كتّاب الطبيعة فى الإفرنجة وهو « برناردن » فلعلّنا نستطيع أن نوازن بين كتّابنا وكتّابهم فى وصف مشاهد قلّما نجد لها آثاراً فى أدبنا وهى مشاهد البحار ، قال « برناردن » :

« لمّا اجتزنا رأس الرجاء الصالح ورأينا مدخل ترعة « الموزامبيك » عصفت علينا من الجنوب ريح راعبة ، وقد كانت السماء صافية ، فكنّا لا نرى فيها إلاّ قطعاً صغيرة من السحاب من لون النحاس، كأنّها بخار لونه بين الأحمر والأصفر، فكانت هذه السحب تقطع السماء بسرعةٍ أشد من سرعة الطير ، ولكن البحر كانت تشقه خمس أو ست موجات مستطيلة عالية كأنها سلاسل تلالٍ تفصل بعضها عن بعض أودية عريضة عميقة وقد كان كل تلٍّ من هذه التلال المائية ذا طاقين أو ثلاثة طيقان ، وكانت الريح تسلخ عن رؤوسها ذات الزوايا زبداً كأنه

عُفْرة طبعت عليه من هنا ومن هنا ألوان قوس قزح وتحمل منها غباراً أبيض كان ينتشر بعيداً عنها فى أودية هذه التلال ، وهو مثل الغبار المنتشر فى الشوارع فى الصيف ، وأرعب شىء فى هذا كله أنَّا كنا نرى بعض رؤوس هذه التلال وقد زجّتها الريح بشدة تنبسط على شكل قبابٍ عظيمة يستدير بعضها حول بعض وهى تهدر وتزبد ، ولو وقف فى وجهها أضخم مركب لانهار تحت أنقاضها ، وقد كانت حالة مركبنا وحالة البحر تتضافران على إدخال الفزع علينا ، لقد حطّمت الصاعقة فى الليل شراعنا الكبير وذهبت الريح فى الصباح بشراع مؤخّرة المركب ولم يكن عندنا غيره حتى عجز المركب عن السير ، فكانت الريح والأمواج تقذف به ذات اليمين وذات الشمال

وقد كنت جالساً فى المؤخرة متعلقاً بحبال الشراع أحاول أن آلف هذا المشهد المخيف وكنت إذا دنا منّا جبل من هذه الجبال أرى رأس هذا الجبل على بعد أكثر من خمسين قدماً من فوق ولكن إذا مرّ صفح هذا الجبل المفزع تحت مركبنا مال به ميلاً شديداً فتنغمس خشب الشرع فى البحر حتى منتصفها ويوشك المركب أن ينقلب بنا رأساً على عقب ، وإذا

علا المركبُ رأس الموج انتصب ثم انقلب فجأة على منحدره المعاكس في خطر لا يقل عن الخطر الأوّل والموج يمرُّ من تحته مسرعاً إسراع سدود الماء وكأنّه شليل من زبد .

ولم يستطع واحد منّا أن يعزّى صديقاً أو أن يعزيه صديق فإن الريح بلغت من الشدة كل مبلغ فلم يقدر الناس على سماع الكلام ولو كان وشوشة ، فكان الهواء يحمل الصوت ولا يمكّننا من أن نسمع غير صفير حادٍ للخشب والجبال وضجيج خشن للأمواج وكأن هذا الصفير وهذا الضجيج زئير الوحوش الضارية

وبقينا على هذه الحال بين الحياة والموت من مطلع الشمس حتى العصر ! »

٭٭٭

هذان مشهدان من مشاهد العواصف فى البحار تكاد تكون أمور كثيرة منها واحدةً متشابهة ، فلم نجد فرقاً كبيراً فى وصف هول البحر ، فالأمواج فى بحر صقلية و بحر الهند مثل الجبال والريح فيهما تكسر خشب الشرع ، والنفوس فيهما من شدة العاصفة بين اليأس والرجاء و بين الموت والحياة ، ولكن الألوان والحركات والأصوات فى عاصفة بحر الهند أكثر منها فى عاصفة

بحر صقلية ، فالسحب فى عاصفة بحر الهند لونها مثل النحاس ، وسرعتها أشد من سرعة الطير والأمواج فيها تنطبع عليها ألوان قوس قزح والغبار فيها لونه أبيض وللخشب والحبال صفير حاد وللأمواج ضجيج خشن ، فقد كانت عين « برناردن » فى بحر الهند أنفذ من عين ابن جبير فى بحر صقلية ، وكانت أذنه أرق فاستطاعت هذه الأذن أن تسمع من الأصوات ما لم تسمعه أذن ابن جبير واستطاعت هذه العين أن ترى من الألوان والحركات ما لم تره عين رحالتنا ، والذى نشعر به فى هذا الوصف أن اللغة العربية إذا شاءت أن تعبّر عن أصوات الريح وجدت لها أفعالاً تدلُّ على هذه المعانى فالريح عاصف، أمَّا لغة الإفرنجة فقد لجأت إلى صفات عامةٍ ، فالريح فى عاصفة « برناردن » تارة مخيفة وتارة شديدة ، والخوف والشدة صفات عامة تطلق على كل شىء مخيف أو شديد أما العصف فإنه خاص بالريح وفى هذا نوع من تحديد المعانى .

٩

إله العواصف

وقد بلغ من عناية الإفرنجة بالطبيعة وحرصهم على إحياء مشاهدها أن جعلوا لها فى ثمرات قرائحهم أشباحاً لها هيآت خاصّة وألوان خاصّة ولحًى خاصة وشعر خاص ، فمن آثار الشاعر البرتغالى المشهور « كامونيس » ملحمة « اللوزياد » فقد تغنّى برحلات البحّار « ڤاسكودى غاما » وخلق فى أغانيه روح الأساطير .

تصوّر هـذا الشاعر أن لرأس الرجاء الصالح حارساً وهو « أداماستور » له طيف عظيم ، هيأته مهدّدة ، وشكله موحش وسحنته صفراء ولحيته كثيفة وشعره أغبر وشفتاه سوداوان وعيناه تدوران تحت الأهداب السود وهمّا تبصان ، فلمّا رأى هذا الحارس البحّار « ڤاسكو دى غاما » يقتحم البحار هجم عليه ليحول دون مضيه فى سبيله وخاطب جماعته بهذا الكلام :

« أيها الشعب ! يا أجرأ الشعوب ! أفلم تبق حواجز فى وجوهكم تقف بكم ! يا رجال الحرب الذين لا يغلبون ! يا رجال

البحر الذين لا يتعبون ! إنكم تجسرون على ركوب هذه البحار المديدة التى خلقت حارساً لها على وجه الدهر ، هذه البحار التى لم ينتهك حرمتها فى يوم من الأيَّام مركب غريب ، وأنا نفسى حرام علىّ ركوبها !

إنكم تنتزعون من الطبيعة السرَّ الذى لم يستطع العلم ولا استطاعت العبقرية انتزاعه حتى اليوم ! أيُّها الميتون الجريئون ! اعلموا بالمصائب التى ستصيبكم على هذه السواحل العاصفة وعلى هذه البقاع البعيدة .

ويل للمركب الذى يجرأ على انتهاك الحرمة ليمشى على آثاركم ! إنى سأنقض عليه ، وسأسلّح الرياح والعواصف ! ويل لأول أسطول يقتحم سلطانى بعدكم ! فاذا ظهر هذا الأسطول على وجه بحارى فلا يلبث أن يُضرب ويشتت ويحطم بين الأمواج !

وسيهلك مع هذا الأسطول البحَّار الكافر الذى رأى فى خلال جولته التائهة منزلى المقدّس ودلّكم علىّ ، وليست هذه العقوبة الخفيفة إلا أولى المصائب التى يعُدها المستقبل لكم ولو كنت أعرف أن أقرأ فى كتاب القضاء والقدر لجاءتكم كل سنة بنكبات جديدة ، وسيكون الموت أهون مصائبكم ! »

***

وكما قدّسوا البحار فإنهم قدّسوا كل جزء من أجزاء الطبيعة فإذا قلع الحطّاب سنديانة من السنديان نهض الشاعر فرثاها وعبّر لها عن اهتزاز نفسه من ضربة فأس هذا الحطّاب وصوّر لها الحزن العميق الذى شاع فى الغابة ، حزن الطير وحزن الماء .

أمّا الطير فقد حلقت بعد قلع السنديانة فى السماء كأنّها فى أجوازها سحابة صفراء وملأت الجوّ بأغاريدها المشجية ، وأمّا الماء المحزن فقد جمد فى الينابيع وكادت رؤس الجبال تزلزل زلزالها وأخذت الريح تردّد أصداء التأوهات العميقة الصادرة عن جوف الأرض !

***

من كل ما تقدّم يتبيّن لنا أن للطبيعة فى أدب الإفرنجة مقاماً جليلا ، وقد بلغ بأحد أدبائهم وهو « روسو » أن حمل أهل عصره على محبّة الطبيعة فصوّر لهم فتنة طلوع الشمس وصفاء ليالى الصيف وملاذّ الحقول وأسرار الغابات الصامتة الكئيبة ، صوّر لهم كل هذا العالم ، عالم الضياء والورق والزهر والطير والنسيم . وإذا كان أدب العرب لم يخلُ على تعاقب العصور

من حسٍّ الطبيعة فقد رأينا بعد مقابلات يسيرة بين حس الطبيعة فى أدبنا وبين حس الطبيعة فى أدب الإفرنجة أن أدباء الإفرنجة اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسّهم فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم وعيناً تبكى بكاءهم وصدراً يفرح فرحهم، فشاطروها آلامها وشاطرتهم آلامهم وإذا كان فى بعض شعرنا شئ من أشباه هذه النزعات، إذا دعا بعض شعرائنا الحمام ليقاسموه الهموم أو عاتبوا شجر الخابور لأنه مورق لم يجزع على ابن طريف، فهذا قليل أو أقل من القليل. لقد كانت الطبيعة فى أدبنا لذّة الحس ولم تكن لذّة الروح، فلم يتضافر ضياء الشمس وورق الشجر وهديل الطير وهبّات النسيم وموج البحر على تعويدنا لذّة الروح، فإذا ألهمتنا الطبيعة بعض صورٍ مادية فإن عواطفنا وشعورنا لا تزال جامدة أمام هذه الطبيعة. ينظر الإفرنجة إلى الطبيعة ولكنهم لا يكتفون بظواهرها، فهم يريدون أن يتغلغلوا إلى بواطنها وأن ينفخوا فيها شيئاً من الروح، فما هذا الصمت وما هـذا الهدوء وما هذه الكآبة التى رآها « لوتى » فى الجليل إلا نفخة من هذه النفخات، فالطبيعة فى أدبهم مثلها كمثل الأحياء فلها مزاج مثل أمزجتهم، فطوراً نراها جذلة وطوراً نراها كئيبة،

وحيناً تكون الكآبة لطيفة وحيناً تكون شديدة ، فكآبة الجليل مثلا لا يفرّحها رونق الأزاهير ولا موسيقى الطير !

فإذا احتاجت الطبيعة فى أدبنا إلى شىء فإنها تحتاج إلى هذه الحياة حتى تصبح مثل الأحياء فتعيش عيشتهم وتشعر شعورهم كما يعيش القصب والصخر فى أدب « لوتى » وكما يعيش الموج فى أدب « لامارتين » .

١

الأدب النفسى

الحبّ فى الجاهلية

لقد أدَّى حسّ الطبيعة فى أدبنا إلى ما أدى إليه فى أدب الإفرنجة ، ففى العصر الذى غلب على أدب الإفرنجة وهو عصر «روسو» مات الأدب النفسى ، لقد كان الرجل قبل هذا العصر موضوع الأدب ، فكان الأدباء ينظرون إليه من بواطنه ، أمّا فى عصر « روسو » فقد انضمّ إلى موضوع الرجل موضوعُ الطبيعة ، فأصبح الأدباء لاينظرون إلى الرجل إلاَّ كما ينظرون إلى الطبيعة ، أى من ظواهره ، فالأدب فى ذلك العصر خرج عن أن يكون نفسياً ، فإنه إذا شاء أن يصف النفس نظر إلى الجسم . هذه المرأة شقراء ، وهذه سمراء . . . وما شابه ذلك ، فنشأ عن هذا كله أن الذى يحس قلمه على وصف الأشكال الظاهرة وعلى الانفعالات الدقيقة التى تطبعها فى النفس إنما هوَ رجل تغلب قوة إحساسه على قوة عقله .

لقد جرى شبه هذا الشىء فى بدء أدبنا ، فإذا دققنا فى ناحية واحدة من نواحى النفس فى شعرنا الجاهلى وهى ناحية الحب وجدنا أن الأنظار فيه تقف على الظواهر أكثر من وقوفها على البواطن ، فهذه أم الحويرث وأم الرباب فى شعر امرئ القيس ، فإذا قامتا فاحت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره ، فامرؤ القيس لا ينظر إلى عرف النفس وإنما ينظر إلى عرف الجسم ، وإذا دخل خدر عنيزة فلا يهمه منها إلا العناق والشم والتقبيل ، فنى هذا مجامع لهوه ، وإذا تلفتنا إلى صور عشيقاته وجدنا هذه العشيقات على الصور الآتية:

كل عشيقة منها دقيقة الخصر ، ضامرة البطن غير عظيمته ، ولا مسترخيته ، صدرها برّاق اللون ، متلألئ الصفاء تلألؤ المرآة ، صافية اللون نقيته مثل الدرة الفريدة التى تضمها الصدفة ، خدّها أسيل ، وعينها مثل عين الظبية المطفل ، وعنقها مثل عنق الظبي وشعرها تام أسود فاحم كثير مثل العناقيد وقنوان النخل وكشحها لطيف وساقها صافية اللون ، دقاق المسك فوق فراشها الذى تبيت عليه وحياتها فى دعةٍ ونعمة وخفض ، بنانها رخص لين ناعم غير غليظ ولا كز ، تضىء بنور وجهها ظلام الليل

فكأنها مصباح راهب منقطع عن الناس !

هذه هى الأشكال الظاهرة التى تقف عليها عين امرئ القيس فى المرأة ، فلا ترى هذه العين إلا صفات الجسم أما صفات الروح فلا تعرف عنها شيئاً ، وإذا امتدت هذه العين إلى نفس العشيقة لتكشف عن دقائقها فلا تهتدى من هذه الدقائق إلا إلى الشيء القليل :

أغرّك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وإذا انتقلنا من شعر امرئ القيس إلى شعر طرفة فإنا نجد فى حبه ما وجدناه فى حب امرئ القيس ، إنه لا ينظر فى حبيبته إلا إلى ظواهرها ، إلى ثغر ألمى الشفتين كأنه أقحوان خرج نوره فى دعص ندٍ وقد سقى هذا الثغر شعاعُ الشمس ، وإلى وجهٍ نقى اللون لم يتشنج ولم يتغضن كأنه الشمس ألقت عليه رداءها ، ونجد ندامى طرفة بيضاً كالنجوم تتلألأ ألوانهم وتشرق وجوههم ، ونجد المغنية التى تأتيهم وهى لابسة ثوباً مصبوغاً بالزعفران ناعمة اللحم ، رقيقة الجلد ، صافية اللون !

وكذلك النساء فى معلقة زهير عليهنّ دلال الإنسان الطيب العيش ، فيهنّ موضع لهوٍ للمتأنق الحسن المنظر ، وفيهن مناظر

معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهن وسمات جمالهن .

ونجد المرأة فى معلقة عمرو بن كلثوم لها ذراعان ممتلئتان لحماً كذراعى ناقةٍ طويلة العنق ولها ثدى مثل حقٍ من عاج بياضاً واستدارة ، وهى محرَّزة من أكف اللامسين ، ولها ورك يضيق الباب عنها لعظمها وضخمها وامتلائها باللحم ولها ساقان كاسطوانتين من عاج أو رخام بياضاً وضخماً .

ونجد حبيبة عنترة لها ثغر ذو حدَّةٍ ، واضح لذيذ المطعم ، عذب المقبّل ، طيب نكهتها مثل طيب ريح المسك أو مثل طيب ريح روضة ناضرة ، تصبح وتمسى فوق فراش وطىء .

ولا أرى بى حاجة إلى التقصى فى هذا النوع من الحب ، فإن الحب فى شعر الجاهلية يكاد يكون واحد الأشكال والصفات ، فالشعراء لا ينظرون فى معشوقاتهم إلاّ إلى ظواهر أجسامهن أما بواطن النفوس فليس لهم مداخل عليها ، وإذا تتبعنا المرأة فى شعر الشعراء الذين غلب الحب على شعرهم مثل المرقش الأكبر أو عبدالله بن العجلان أو عروة بن حزام أو غيرهم ، فلا نجد لهذه المرأة إلّا صفات ظاهرة ، أما الصفات الباطنة فقد أشكلت على عيون الشعراء .

٢

الحب بعد الجاهلية

وما أظن أن الأمر جرى على هذا الشكل فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية ، ومن المتعذر علىّ فى مقام ضيق مثل هذا المقام أن أتتبع الشعراء الذين انصرفت عيونهم بعض الانصراف عن مناظر الطبيعة ولم يعد لحسّ الطبيعة المحل الأول فى شعرهم، وعلى الرغم من هذا الطور الجديد الذى دخل فيه شعراء النسيب قد يحتوى شعرهم على وصف الأجسام ولكنه يحتوى أيضاً على صفات النفوس ، فهذا جميل بن معمر قلما تغلب على شعره الألفاظ التى تدل على الأشكال الظاهرة مثل ضمور البطن وصفاء اللون وسواد الشعر ولطافة الكشح ونقاوة الوجه وغير ذلك من الصفات كما غلبت على هذا الشعر الألفاظ التى تدل على المعانى النفسيّة مثل النسيان والذكر والمنى والوصال والهجر وحفظ الغيب والتجلّد والصبابة والتفكير والوعد والهوى والوجد والالتقاء والتفرق وأمثال هذه الألفاظ المجرّدة ، فلم يكتف شعراء النسيب فى هذا العصر الجديد بالأشكال الظاهرة ولكنهم تغلغلوا إلى

النفوس بعض التغلغل وأفصحوا عن بواطنها أكثر من إفصاحهم عن ظواهرها ، ولئن لم نجد عمق العواطف فى شعورهم فإنا نجد هذه العواطف على كل حال ، فهى ظاهرة بيّنة ، و إذا قابلنا بين شعر جاهلى فى النسيب و بين شعر أموى تبين لنا الفرق بينهما فى هذا المعنى ، وليس من الضرورى أن أسترسل فى ضرب الأمثال و إنما ألجأ إلى أىّ مثل كان : لمّا نذر أهل بثينة دم جميل وأهدره السلطان لهم ضاقت الدنيا به فكان يصعد بالليل على قور رمل يتنسم الريح من نحو حى بثينة ويقول :

أيا ريح الشمال أما ترينى أهيم وأننى بادى النحول
هبى لى نسمة من ريح بثنٍ ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسى قليلك أو أقل من القليل

فليس فى هذه الأبيات لأشكال الجسم الظاهرة من النصيب ما للعاطفة النفسية ، لقد رقت العاطفة بعض الرقة وصار النسيب حديث النفس بعد أن كان حديث الجسم ؛ ومن أراد أن يطلع على حقيقة هذا الأمر فليرجع إلى شعر جميل و إخوانه لأن المقام يضيق عن اختيار قصائد لهم فى هذا الباب ، إلا أن ذكر أبيات

قليلة يجعل لنا رأياً فى هذا الشعر من ناحية اشتماله على الصفات النفسية فى الحب .

لها فى سواد القلب بالحب منعة هى الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زفرة واستكانة وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلة أسر به إلا حديثك أطرف

فإذا كنا لا نجد فى هذا النحو من الشعر العواطف العميقة الدقيقة التى نجدها فى الشعر الغربى فإنا نجد فيه عواطف بسيطة حلّت محلّ الأشكال الظاهرة التى كانت مستفيضة فى الشعر الجاهلى .

وكذلك الأمر فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإن الألفاظ المجردة كثيرة فى شعره مثل حاجة النفس وعزاء الفؤاد والتجريب والصرم والوصال والحديث والملاطفة وتصابى القلب والسحر والملام ونجوى الصدر والوساوس وهذا نموذج من حبه الروحى .

أغـرّك أنى عصيت الملا م منك وأن هوانا هواك !
وأن لا أرى لذة فى الحياة تقرّ بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لى عندكم مكارمتى واتباعى رضاك

فليت الذى لام فى حبكم وفى أن تزارى بقرن وقاك
هموم الحيــــاة وأسقامها وإن كان حتف جهيد فداك!

فهذا الشعر يعرض علينا صورة من الطور الذى دخل فيه الحب فى عصر بنى أمية وقد تتفاوت منازل الشعراء فى هذا المجال، وليس هذا الموضع بموضع موازنة بينهم أو بموضع نقد وإنما الغاية كلها التنبيه على أن حسّ الطبيعة قد ضعف أثره فى الشعر الأموى بعد الجاهلية فانتقل الحب من الأشكال الظاهرة إلى الأشكال الباطنة، فلم يعد لألوان الجسم وأشكاله فى الشعر المقام الذى أصبح لألوان النفس وأشكالها، وقد يكون لكل شاعر من شعراء النسيب خصائص فى الحب النفسى، فعمر بن أبى ربيعة مشهور فى هذا الباب بالحياة التى نفخها فى شعره روح القصص.

٣

بخلاء الجاحظ وبخيل «موليير»

وإذا بعدنا قليلاً عن الشعراء الذين تقدم ذكرهم وجاورنا العصر الذى استفاضت فيه الفلسفة واختمرت فى النفوس فإنا نجد للتحليلات النفسية فى الشعر أثراً أبلغ ، فإن قول المتنبي :

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها ... فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
وإن عشقت كانت أشد صبابة ... وإن فركت فاذهب فما فركها قصد
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضى ... وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء وربما ... يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

يشتمل على شىء من كشف الغطاء عن نفوس النساء، على أن المجال الذى يتسنَّى لنا فيه النظر إلى بواطن النفوس إنما هو مجال النثر لأن مجال الشعر فى هذا المعنى ضيق .

فلنترك الآن الشعر ولنلتفت إلى النثر حيث نستطيع أن نقابل بين نظرة العيون فى الجاهلية إلى ظواهر الطبيعة وبين نظرتها فى عصر العبَّاس إلى بواطن النفوس ، ثم نستطيع أن نقابل بين نظرتنا إلى هذه البواطن وبين نظرة الإفرنجة إليها .

أعمد فى هذا الباب إلى كاتبين كتبا فى موضوع واحد وهما: الجاحظ و « موليير » فالأول كتابه : « البخلاء » مشهور، والثانى كتابه : « البخيل » معروف.

لم يبعد الجاحظ فى أدبه عن مشاهد الحياة الخاصة، فكأنه دخل فى « بخلائه » دور طائفةٍ من الناس، فعاين ما كلهم ومشاربهم وملابسهم، وخالطهم فى تدبير منازلهم فلم يفته شىء من أساليبهم فى الطبخ والأكل واللبس والعلاج والاستصباح والاستحمام وما شابه ذلك، وكأنه شاهد كيف يتداوون فى السعال بماء النخالة وكيف يطبخون الشاة فلا يضيعون جزءاً من أجزائها وكيف يأكلون بالبارجين ويقطعون بالسكين ويلزمون عند الطعام السكتة ويتركون الخوض، وعرف وجوههم فى الكراء والشراء ونحوهما، فكانت المطابخ والموائد والأوانى والمواعين مادّة أدبه، فلم يتقزز فى هذا الأدب من أن يملأ أنفه من روائح اللحم والتوابل والسمن والخل والثوم أو من روائح السكباج والطباهج وغير ذلك.

وليست هذه الأمور وحدها هى التى عاينها ولاحظها ولكن الاستقصاء فى ذكرها أمر عسير فالجاحظ قد دخل من كل باب

وجرى مع كل ريح ولكنه لم يدخل من هذه الأبواب كلها إلا ليخرج منها بحجة طريفة أو بحيلة لطيفة أو ببادرة عجيبة.

حاول الجاحظ فى « بخلائه » التنبيه على عيب مشهور، وهو البخل، فبسط لنا نماذج كثيرة من البخلاء وبين كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يلبسون وكيف يكنزون إلى غير ذلك من الصور الظاهرة التى تضحك القارئ قبل كل شىء حتى يكاد هذا الإضحاك يصرفه عن معرفة خصائص البخل.

من طبائع بخيل الجاحظ أنه يلاحظ اللقمة، فإذا انتخب أكيل هذا البخيل أكلته واختار كل منهوم فيه ومفتون به استلب البخيل من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى وانحدار العقاب، فقد صوّر الجاحظ حركات العين كيف تلاحظ اللقمة وحركات اليد كيف تستلب هذه اللقمة من الأكيل أو كيف تكتفه كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً.

هذه صورة ظاهرة تدلنا على نوع واحد من الحركات وهى حركات العين واليد أو أمثالها ولكنها هل تدلنا على حركات النفس، فهل كان بخيل الجاحظ عالمياً غير خاص ببلد أو بعصر،

وإنما هو بخيل كل العصور وكل البلدان ، قد طبع على ما يطبع عليه البخيل فى أى عصر كان وفى أى بلد كان؟ هذا سؤال يسهل الجواب عنه إذا قارنّا بين وصفنا لعيوب النفس وأمراضها وبين وصف الإفرنجة لهذه العيوب والأمراض .

فلنقابل بين بخلاء الجاحظ وبين بخيل « موليير » دون شيء من التوسع .

لقد ثبّت « موليير » فى بخيله نموذج البخيل الحقيقى ، فلم تقتصر روايته على تصوير ما يساور صاحب المال من قلق ، ولكنها صورت البخل فى كل ما يشتمل عليه من سخرية وكراهية وفظاعة ، فلم يعُدْ بخيل «موليير» البخيل القديم الذى يكنز ذهبه ، وإنما هو بخيل متمول ، يقرض ماله ويفرط فى الربا ، فهو مُرْبٍ عصرى يثمّر ماله حتى يكاد حبّ الربح ينسيه واجب الأدب .

أما الجاحظ فلم يظهر فى بخلائه آثار السخرية والكراهية والفظاعة ، ومعنى هذا أنه لم يصور البخلاء فى صور تجعلهم ضُحْكة للناس أو فى صور تبغضهم إلى الناس أو فى صورٍ يستفظعهم فيها الناس ، فقد كان همه الإضحاك قبل كل شيء ،

حتى أنه اعترف للقارئ بأن كتابه لا يصوّر له كل شيء ولا يأتي له على كنهه وعلى حدوده وعلى حقائقه ، فكان يحكي بعض الحكايات ويودّ لو أن القارئ رأى الحكاية بعينه لأن بعض هذه الحكايات لا تطيب جداً إلاّ إذا رآها بعينه ، فلم يكن بخيله عالمياً ، أي بخيل كل العصور وكل البلدان ، فقد أهمل تصوير قلق البخيل وتصوير ما يولّده في الناس من سخرية وكراهيةٍ وفظاعةٍ ، فاذا كنّا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذي يضحكنا إنما هو ظاهر البخيل ذاته لا صورة البخيل ولا حركات نفسه .

وإذا أردت أن تعرف صورة البخيل الحقيق ، بخيل كل العصور وكل البلدان ، فانظر إلى بخيل « موليير » فهو لا يريد أن يرى خادم ابنه منصوباً في داره كالرمح يعاين ما يقع في هذه الدار وهو لا يريد أن يرى أمامه جاسوساً تشاهد عيناه الملعونتان أعماله وتأخذان ما يملكه وتدوران في كل جهة لعلّهما تريان شيئاً يمكن استلابه .

هذه صورة البخيل الحقيق ، إنه يخاف كل شيء ويسيء الظن بكل شيء فهو دائماً في قلقٍ واضطراب ، إن خرج الخادم

من عنده فتّشه ، وظن أنه قد سرق له شيئاً ، مرّة يفتش يده اليمنى ومرة يده اليسرى ، ومرّة يفتش اليدين ثم يفتش القدمين، ثم يفتش الجيوب إلى آخر هذه الحركات التى تدل على حركات نفس البخيل ، فهو يعتقد أن كل البشر يسرقون ماله .

فالجاحظ قد تغلغل إلى غايات نفس البخيل البعيدة ، مثل تغلغل « موليير » وعرف مراميها الدقيقة مثل معرفة « موليير » ولـكنه لم يعرض علينا هذا القلق الذى يغالب البخيل وهذه الشقاوة الباطنة التى يشقاها فى الخوف على ماله فهو يخاف كل شىء حتى هذه الصناديق التى يكنز فيها ماله فلا يأمنها ولا يطمئن إليها لأنها قد تسرق له المال الذى استودعها إيّاه ، فهو يكتم أهله ماله ويظهر لهم الفقر حتى لا يطمعوا فيه فهم فى نظره أعداء له وهم خونة يخونونه ، ويكتم الناس ماله حتى لا يهجموا عليه وحتى لا يقتلوه ولا يسلبوه.

قد تتفق العبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الإفرنجة فى وصف بعض حالات ظاهرة ، فبخيل « موليير » لا يريد أن يرى شيئاً من الإسراف والتبذير فإذا رأى على ابنه ثياباً فاخرة لامه ووبّخه ، ومثل هذه الحالات الظاهرة كثيراً ما نجدها فى

بخلاء الجاحظ وربما كان الجاحظ أوفر صوراً من « موليير » في هذا المعنى .

ولكن الجاحظ لم يتفنن في الكلام على حركات البواطن تفننه في الكلام على حركات الظواهر ، فإن بخيل « موليير » إذا سمع في بستانه كلباً ينبح سبق إلى ذهنه أن هذا الكلب ينبح لأنه رأى لصوصاً هجموا على الدار ليسرقوا ما فيها ، فهو ذو فكر ثابت لا يتغير ، إنه خائف على ماله ، مشغول البال بهذا المال .

أجل ، قد تتفق العبقريتان في تصوير الحالات الظاهرة ، فمن جملة هذه الحالات أن بخيل « موليير » وبخلاء الجاحظ لا يعرفون كلمة « خذ » ولكنهم يعرفون كلمة « هات » ، ومن جملة هذه الحالات أنهم يخافون على أثاث الدور من أن تمتد إليه الأيدي ويحذّرون الناس من فرك الثياب حتى لا تتفزّر ، ومن مسح الأواني حتى لا تتكسر ، ولا يريدون أن يكثر الضيف من الأكل ، فالإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل . هذه حكمة يريد بخيل « موليير » أن يكتبها بمداد من ذهب على مدخنته .

قد تتفق العبقريتان في هذا كله ولكن الاختلاف يشتد في

تصوير حركات النفس وفى تصوير قلقها واضطرابها وجنونها؛ فإن بخيل « موليير » لما سُرِق ماله طار عقله فأخذ يصرخ هذه الصرخات الخالدة فى تصوير حالة البخيل النفسية : يا للسارق ! يا للقاتل ! يا للعدل ! لقد ضعت ! لقد قتلت ! لقد خنقونى ! لقد سرقوا مالى ! أين السارق ! أينِ مكمنه ! إلى أين أركض ! أهوهنا ! أهو هناك ! ويبلغ منه الجنون مبلغاً يظن فيه أنه سرق نفسه ، فيقبض على ذراعيه ، ثم يعرف هذا فيصرخ : اضطرب فكرى ! إنى أجهل من أنا ! وأجهل أين أنا ! وأجهل ما أعمل ! إلى آخر هذه الصفحة الخالدة فى رواية «موليير» .

قد يصعب علىّ أن ألخص فى سطور آيات الجاحظ فى بخلائه وآيات « موليير » فى بخيله فما قصدى الاستقصاء فى هذا الباب ولا غايتى الموازنة بين الكاتبين وإنما تصديت للموضوع من وجه واحد ، فقد أحببت أن أبيّن الفرق بين الأدبين ، أدب العرب وأدب الإفرنجة من حيث تصوير ظواهر النفس وبواطنها .

لقد نفذ « موليير » سخرية البشر ، فصوّر على المسرح عيوب الناس وكان يؤلمه أن يعيبوه بأنه فى التصاوير التى صورها كان يمر بباله واحد من أهل عصره ، فإن غايته كانت تصوير

الأخلاق دون الالتفات إلى رجل بعينة ، إن الصور التى عرضها إنما هى صور خيالية لا تمثل رجالاً حقيقيين ، أمّا الجاحظ فقد التقط فى بخلائه أحاديث أصحابه وأحاديث ما رآه بعينه ، فبخلاؤه منهم الصديق والولىّ ومنهم المستور والمتهتك ، وكان يؤلم « موليير » أن يرى وجه شبه بين صورة يعرضها على المسرح وبين صورة رجل من عصره لأن غايته كانت تمثيل العيوب بوجه عام وخاصة عيوب عصره وعلى هذا كان يتعذر عليه أن يصوّر صورة من دون أن يجد لها فى عصره رجلاً توافقه .

فالجاحظ لم تكن غايته تصوير البخل بوجه عام فبخيل الجاحظ لم يكن عالمياً ، وقد يجمع هذا البخيل طائفة من صفات بخيل كل العصور وكل البلدان ولكننا لا نرى عليه آثار القلق وشغل البال ، من هذا كله يتبين لنا أنا نحتفل فى أدبنا بالظواهر وأن الإفرنجة لا يكتفون بالظواهر وحدها فهم يتسربون فى البواطن ، وقد نبرع فى الاهتمام بالظواهر براعة خاصة فإن كل حكاية من حكايات بخلاء الجاحظ قد تكون موضوع رواية فى ذهن كاتب من كتّاب الإفرنجة ، فقد أتقن التدقيق فى ظواهر البخيل سواء أكان هذا البخيل يطبخ شاةً أم يؤجر داراً أم يوصى ولداً أم يطعم ضيفاً أم

يسرج مصباحاً ، ولكنه هل أتقن التدقيق فى بواطن البخيل ؛ لاشك فى أنه عرف أسرار البخلاء وعرف دخائلهم ولكنه هل صوّر حركات هذه الدخائل، فإذا أعوز أدبنا شىء فإنما يعوزه هذا الطراز من التعمق الفلسفى الذى يكشف الغطاء عن حركات النفس بعد كشف هذا الغطاء عن حركات اليد والعين !

٤
تصوير الجاحظ للحسد

ولئن لم يتغلغل الجاحظ إلى أعماق أحد أمراض النفس وهو البخل ولم يكشف الغطاء عن حركات هذا المرض الباطنة وإنما اقتصر على حركاته الظاهرة فقد تعمق فى الكشف عن أسرار مرض آخر وهو الحسد ، فحلّ عناصره وفكّ أجزاءه ثم وصف ظواهره وبواطنه بوصف معالجته ، عرّف الجاحظ هذا الداء على الوجه الآتى :

« والحسد ، أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء . . . »

وبعد أن فرغ من تعريف هذا المرض الذى ينهك الجسد ، أمعن فى تصوير نفس الحاسد ، فعرض هذه النفس فى أوضح معارضها وبين الأمور التى يشغل بها الحاسد نفسه :

« قال بعض الناس لجلسائه : أىُّ الناس أقلّ غفلة ، فقال بعضهم : صاحب ليل إنما همّه أن يصبح . فقال : إنه لكذا

وليس بكذا . وقال بعضهم : المسافر إنما همه أن يقطع سفره ، فقال : إنه لكذا وليس بكذا . فقالوا له : فأخبرنا بأقلّ الناس غفلة ، فقال : الحاسد إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها فلا يغفل أبداً » .

لقد وضّح لنا الجاحظ بهذا الكلام حقيقة صورة الحاسد ، فكل همّ الحاسد أن ينزع الله من ذى نعمةٍ نعمته .

ثم لجأ إلى تتميم هذه التعريفات الوجيزةِ ببيان صفات الحاسد ، مستعيناً بكلام بعض الأعراب : « نفس دائم ، وقلب هائم وحزن لازم » .

هذه بواطن الحاسد ، أمّا ظواهره فلم يغفل عنها الجاحظ ، فقد قال :

« وما لقيت حاسداً قط إلاّ تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه وإخفاء سلامه والإقبال على غيرك والإعراض عنك والاشتغال لحديثك والخلاف لرأيك » .

ثم أمعن فى وصف هذا الداء الذى يغلب على ظاهر صاحبه وباطنه فضرب الأمثال الناطقة :

« وأنا أقول حقاً ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه

ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرّد عليه بظهوره وإعلانه فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآمر على الأسير، وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً وبالدهاء معروفاً وبالعقل موسوماً وبالمداراة متهوماً فأظهر بلسانه حسداً كان واظب عليه أربعين سنة لبنى هاشم فما اتسع قلبه لكتمانه ولا صبر على اكتتامه لمّا طالت فى قلبه طيلة أظهره وأعلنه مع صبره على المكاره وحمله نفسه على خسفها وقلة اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق التى تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه ما يلتفت إليها، حدثت بذلك عن على بن مسهر، عن الأعمش عن صالح بن حباب، عن سعيد بن جبير قال: قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير قال: أنت الذى تؤنبنى، قال: نعم، لأنى سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجاره طاو، فقال له ابن الزبير: لمن قلت ذلك، إنى لأكتم بغضكم أهل البيت منذ أربعين سنة. فحسر ابن عبّاس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخلٍ ثم قال لابن الزبير: نعم، فليبلغ ذاك منك ما عرفتك، ولقد

أجلت الرأى ظهراً لبطنٍ وفكرت فى جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخزة فى قلبه فلم يبدها وفروع بنى هاشم حول الحرم باسقة وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسهم من أعاليها عامرة ، و بحورها بأوراق العباد زاخرة وأنجمها بالهدى زاهرة فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكنّ فى نفسه ، والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتى الموت على رمته ، وما استقبل ابن عباس بذلك إلاّ لما رأى من تقدمه على أهل القدم ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم فأوسعهم حكماً وثقبوا منه رأياً وفهماً وسبقهم علماً وحلماً » .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الأمثال الناطقة ، فقد أخذ فى بيان أساليب الحاسد فى سيرته مع الناس :

« ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يوبخه على المال فيقول : جمعه حراماً ومنعه أيتاماً وغلب عليه محاويج أقاربه فتركهم له خصماً ، وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر فقال ، لقد كفروا معروفك وأظهروا فى الناس ذمّك ، ليس أمثالهم يوصلون ؛ فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد لهم خصماً

أعانه عليهم ظلماً ، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه أو تفضل عليه بمعروف كفره أو دعاه إلى نصير خذله وإن حضر مدحه ذمّه وإن سئل عنه همزه وإن كانت عنده شهادة كتمها وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، يحب أن يُعاد ولا يعود ويرى عليه القعود . وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع لرأيه ، متبع ، حاطب ليلٍ ومبتغى نيل ، لا يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الحيل ، قد أقبل بوجوه الناس إليه وما أحمقهم إذا انثالوا عليه فقبحه الله من عالم ! ما أعظم بليته وأقلّ رعيته وأسوأ طعمته ! وإن كان المحسود ذا دين قال : يتصنع أن يوصى إليه ، ويحج بشىء عليه ويصوم لتقبل شهادته ويظهر النسك ليودع المال بيته ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ويحضر الجنائز لتعرف شهرته » .

وبعد هـذا كله يعرض الجاحظ لنتائج الحسد الوخيمة فى المجتمع :

« منه تتولّد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرّق كل جماعة وقاطع كل رحم من الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الحلفاء .. »

ثم يصف لهذا المجتمع الدواء الذى ينبغى له أن يتداوى به اتقاء لشر الحاسد :

« وما أرى السلامة إلاَّ فى قطع الحاسد ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ولا الراحة إلاَّ فى حرم مداراته ولا الربح إلا فى ترك مكافأته فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً مريئاً وعش فى السرور مليًّا . »

***

وأظن أنا نستطيع بعد هذا الطرز من التحليل النفسى أن نقول : هل غادر الجاحظ من متردَّم فى باب الحسد !

٥

أبو حيّان التوحيدى

وإذا ذكرنا الجاحظ فى تصويره لطائفة من أمراض النفس فلا نستطيع أن نهمل ذكر أبى حيَّان التوحيدى فإنه فى رأس نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال الذين قد فرّغهم الله لتتبع الأمور واستخراج ما فى الصدور واعتبار الأسباب فقد نجد فى كتابه : «الإمتاع والمؤانسة» بعض الصور كشف فيها عن الظواهر والبواطن أجتزئ فى هذا المقام بصورة الصاحب بن عبَّاد ، فقد انتجعه أبو حيان وخبره وحضر مجلسه ووقف على أخلاقه ومذهبه وعادته وعلمه و بلاغته ، وقد يكون فى هذه الصورة شىء مما نسميه التحامل لأن أبا حيان اعترف بأنه رجل مظلوم من جهة الصاحب وعاتب عليه فى معاملته وشديد الغيظ لحرمانه فإذا وصفه انتصف منه ؛ ولو كان معتدل الحال بين الرضا والغضب أو عارياً منهما جملةً كان الوصف أصدق والصدق به أخلق ، على أنى لا أهتم بهذا الوصف من جهة أنه صادق أو غير صادق

وإنما أهتم به من جهته الفنية فقد كشف أبو حيّان عن حالة الموصوف العقلية وعن أخلاقه وعن مواطن الضعف فيه وعن السخرية به وعن حركات جسمه ، وفى هذا كله شىء من فنّ التصوير النفسى .

بدأ أبو حيّان بوصف عقل الصاحب بن عبّاد أو ثقافته على تعبير هذا العصر :

« إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء وأخذ من كل فنٍ أطرافاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجّنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس عنده بالجزء الإلهى خبر ولا له فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ويقول الشعر وليس بذاك وفى بديهته غزارة وأمّا رويّته فخوّارة ... »

لقد أحطنا فى هذه القطعة بمقدار ثقافة الصاحب بن عبّاد بالنسبة إلى العصر الذى عاش فيه ، وإذا شئنا أن نقف على مبلغ طائفةٍ من أخلاقه وشميه ومزاجه وسيرته فلنسمع ما قاله أبو حيّان .

« ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذيء اللسان ، يعنى كثيراً قليلاً (أعنى يعطى الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة ، قريب الطيرة ، حسود حقود حديد وحسده وقف على أهل الفضل وحقده سار إلى أهل الكفاية ، أمّا الكتّاب والمتصرفون فيخافون سطوته وأمّا المنتجعون فيخافون جفوته وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمّة نخوةً وتعنتاً وتجبراً وزهواً . . »

وبعد أن يفرغ من هذا الشكل من الوصف الخلقى والنفسى يأخذ فى بيان مواطن الضعف فى الصاحب :

« وهو مع هذا يخدعه الصبى ويخلبه الغبى لأن المدخل عليه واسع والمأتى إليه سهل وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أُعار شيئاً من كلامه ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلاّ لأستفيد كلامه وأُفصح به وأتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد وأبرز جميع قدرته فى

شخص ، فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له وينسى كلَّ فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورِق ويسهّل له الإذن عليه والوصول إليه والتمكن من مجلسه ، فهذا هذا . . »

ثم يمعن فى السخرية به :

« ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ويقول : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى وهو بغدادى محكك ، قد شاخ على الخدائع وتحنّك ، وينشد فيقول له عند سماعه شعره فى نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره : أعد يا أبا عيسى ! فإنك والله مجيد ! زه ! يا أبا عيسى والله قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالسنا تخرّج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيد لهم الفطنة وتحول الكودن عتيقاً والمحمرَ جواداً ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطية هنية ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ولا يزن بيتاً ولا يذوق عروضاً . . »

فإذا انتهى من هذه السخرية الأليمة ومن هذا التحليل الدقيق شرع فى تفصيل أسباب هذه المواطن الضعيفة :

« والذى غلطه فى نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يُجبَهْ قط بتخطئة ولا قوبل بتسوئة ولا قيل له : أخطأت أو قصّرت أو لحنت أو غلطت أو أخللت ، لأنه نشأ على أن يقال : أصاب سيدنا وصدق مولانا ولله دره ! ولله بلاؤه ! ما رأينا مثله ولا سمعنا من يقاربه ، من : ابن عبد كان مضافاً إليه ، ومن . ابن ثوابة ، مقيساً عليه ، ومن . إبراهيم بن العباس الصولى إذا جمع بينهما ، من : صريع الغوانى ، من أشجع السلمى إذا سلك طريقهما ومتح برشائهما وقدح بزندهما . . . »

وكأن أبا حيّان قد أدرك أن وصف هذه البواطن كلها لا يتمّ إلا بشىء من وصف الظواهر فيعمد إلى حركات جسم الصاحب ابن عبّاد فيوجز الكلام عليها .

« فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ويطير فرحاً ويتقسم ويقول : ولا كذا . . . ثمرة السبق لهم وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ونشق غبارهم أو نرد غمارهم وهو فى كل

ذلك يتشاكى و يتمايل و يلوى شدقه و يبتلع ريقه و يردّ كالآخذ و يأخذ كالمتمنع و يغضب فى عرض الرضا و يرضى فى لبوس الغضب و يتهالك و يتمالك و يتقابل و يتمايل و يحاكى المومسات و يخرج فى أصحاب السماجات . . »

٦

مقامات الحريرى

ولم يقتصر أدبنا النفسى على التصوير والتحليل وإنما تصدّى لموضوعات أعم ، فإذا أحببنا أن نصرف النظر عما تضمنته مقامات الحريرى من جدّ القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره ومُلح الأدب ونوادره أو عما وشحها به صاحبها من الآيات ومحاسن الكنايات ورصّعه فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبَّرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ونقتصر على الناحية الثانية التى توخاها وهى التنبيه والتهذيب وجدنا فى المقامات صوراً للأخلاق ولبعض المذاهب يخرج بها الحريرى عن أشكال الناس الظاهرة إلى صفاتهم الباطنة ، وقد كنت أودّ لو تمكنت من تلخيص بعض هذه الصور ولا بأس بالإشارة إلى صورتين منها ، لا شك فى أن العصر الذى نعيش فيه لا يتسع لهذا الطراز من الإنشاء ولكن غايتنا فى هذا المقام معنى الكلام لا مبناه ؛ ففى المقامة الرابعة الدمياطية نجد صورتين

متناقضتين لنوعين من سيرة الناس ولدهما الحريري على لسان أبي زيد السروجي وابنه ، يقول صاحب الصورة الأولى :

« أرعى الجار ولو جار ، وأبذل الوصال لمن صال ، واحتمل الخليط ولو أبدى التخليط وأوري الحميم ولو جرّ عني الحميم وأفضل الشفيق على الشقيق وأفي للعشير وإن لم يكافيء بالعشير واستقل الجزيل للنزيل وأغمر الزميل بالجميل وأنزل سميري منزلة أميري وأحل أنيسي محلّ رئيسي وأودع معارفي عوارفي وأولي مرافقي مرافقي وألين مقالي للقالي وأديم تسآلي عن السالي وأرضى من الوفاء باللفاء وأقنع من الجزاء بأقل الأجزاء ولا أتظلم حين أظلم ولا أنقم ولو لدغني الأرقم . . »

أما الصورة الثانية فإنها تناقض الأولى فإن صاحب هذا الرجل لما سمع هذا الضرب من الكلام قال له :

« لكن أنا لا آتي غير المواتي ولا أسم العاتي بمراعاتي ولا أصافي من يأبى إنصافي ولا أواخي من يُلغي الأواخي ولا أمالي من يخيب آمالي ولا أبالي بمن صرم حبالي ولا أداري من جهل مقداري ولا أعطي زمامي من يخفر ذمامي ولا أبذل ودادي لأضدادي ولا أدع إيعادي للمعادي ولا أغرس الأيادي

فى أرض الأعادى ولا أسمح بمواساتى لمن يفرح بمساآتى ولا أرى التفاتى إلى من يشمت بوفاتى ولا أخص بحبائى إلاَّ أحبّائى ولا أستطب لدائى غير أودّائى ولا أملك خلتى من لا يسد خلتى ولا أصفى نيتى لمن يتمنّى منيتى ولا أُخلص دعائى لمن لا يعم وعائى ولا أُفرغ ثنائى على من يفرّغ إنائى ، ومن حكم بأن أبذل وتخزن وألين وتخشن وأذوب وتجمد وأزكو وتخمد، لا والله بل نتوازن فى المقال وزن المثقال ونتحاذى فى الفعال حذو النعال حتى نأمن التغابن ونكفى التضاغن وإلا فلِمَ أعلّك وتُعلّى وأقلك وتستقلّنى وأجترح لك وتَجرحنى وأسرح إليك وتسرّحنى وكيف يُجتلب إنصاف بضيم وأنَّى تشرق شمس مع غيم ومتى أصحب ودّ بعسف وأىّ حرّ رضى بخطة خسف . . »

٭٭٭

هاتان صورتان تكاد تكون كل واحدةٍ منهما تصويراً لنوع خاص من الحياة ، ففى الأُولى صورة حياة إنسانية واسعة المدى ، مديدة الآفاق ، وإن كانت البشرية لم تصل بعد إلى هذا النوع من الكمال ، وفى الثانية صورة حياة أقرب من الحقيقة أى من الأمر الواقع ، ولست فى مقام الموازنة بين هذين النوعين من

السيرة، ففى الحياة الإنسانية المذكورة فى الصورة الأولى أمور لو عملت بها أمة من الأمم فى عصر مثل عصرنا تتكالب فيه البشرية على المادة لذهبت هذه الأمة بين سمع الأرض و بصرها فإن الأمة التى لا تتظلم حين تظلم لجديرة بأن يهدمها الظلم فلا يبقى لها أثر . وفى الحياة الواقعة المذكورة فى الصورة الثانية أمور تصح أن تكون المثل الأعلى فإن الأمة التى لا ترضى بخطة خسف إنما هى أمة جديرة بالحياة، والخلاصة أن الأدب فى هذا الشكل من الوصف قد عدل عن الأشكال الظاهرة وأخذ فى أعماق النفوس فإذا لم نقتصر فى المقامات على النظر إلى الوجهة الفنية وحدها ونظرنا إليها من الوجهتين الفنية والمعنوية وجدنا فيها نوعاً من الخواطر الفلسفية، وقد تكون هذه الخواطر غير عميقة بالنسبة إلى عصرنا ولكن ليس بقليل أن ينشأ كاتب من كتابنا فى القرن الخامس وأن تخطر بباله أمثال هذه الخواطر التى تصور نوعاً خاصاً من السيرة والحياة، ولست فى حاجة إلى الاستقصاء فى المقامات كلها و إنما اكتفيت بضرب المثل لا غير، أما التوسع فى معرفة ما اشتمل عليه فريق منها من تصوير خلقى أو فلسفى فلا يتسع له مثل هذا الكتاب ولا ريب فى أن معالجة موضوعات

جليلة مثل الموضوعات التي عالجها الحريري بأساليب مشتملة على بعض الهزل قد تزيد في قوة التنبيه والتهذيب اللذين رمى إليهما صاحب المقامات فليس من الضروري أن يكون التهذيب مُضجراً مقلقاً وقد كان أكابر كتّاب الإفرنجة وفي مقدمتهم « فولتير » يهذبون البشر بكتاباتهم وهم يهزلون ويسلّون !

٧

فى عالم النفس

لا بأس بأن أختم الفصل الثانى من هذا الكتاب وهو الأدب النفسى بالكلام على الروح الفلسفى الذى استفاض فى أدب الإفرنجة، لعلّنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الروح الفلسفى فى أدبهم و بين تغلغل كتّاب أمثال الحريرى وأبى حيّان والجاحظ إلى أعماق النفوس ، فإنّ الحاجة إلى الفلسفة ماسّة فى كل زمن ، و إذا كان من الممتنع أن نعرف وجه الفلسفة فى المستقبل فليس من الممتنع على نحو ما قال « فاكه » أن نعرف أن الفلسفة خالدة فى كل عصر ، وأنها تقضى حاجة من حاجات العقل البشرى وتجمع المستنبطات العلمية فى نظام من الأفكار العامة العظيمة ، وتجتاز العلم ، فتبحث وتنقب على قدر الإمكان عن لغز الكون وسره ، فلا الفلسفة ولا علم ما وراء الطبيعة ينطويان فى يوم من الأيّام ؛ فالحياة لاقيمة لها كما قال « نيتشه » إلا من حيث أنها آلة المعرفة ، ومهما تطمح البشرية إلى المعرفة الجزئية فإنها تظل شديدة التطلع إلى المعرفة الكلية ، فلا تكلّ

فى سبيل الوصول إلى هذه المعرفة ، ولا تفتر رغبتها فيها .

* * *

للروح الفلسفى فى أدب الإفرنجة مظاهر شتى .

فمرّة يعرض كتّابهم لنفس المرأة فيمعنون فى بواطن هذه النفس حتى تنكشف هذه البواطن للعيون كما فعل « بورجه » فى روايته « أكاذيب » فإنه لمّا قال فى بعض مواطن هذه الرواية : « من النساء طائفة لهنّ أسلوب سماوى فى الإغضاء عن انبساطات ينبسطها الرجال فى حضرتهن . . . » كشف الغطاء عن حيلةٍ خالدة من حيل النساء .

ولمّا قال فى الرواية ذاتها : « تشعر النساء بفرح عظيم إذا قلن فى شىء من الابتسام حقائق لا يؤمن بها الرجال الذين يسمعونها منهنّ ، فإنهنّ يشعرن فى مثل هذه الحال بقليل من الخطر الذى يهز أعصابهنّ هزاً لذيذاً . . . » عرض ملاحظة ثمينة فى معرض حديث أصاب فيه كلّ الإصابة .

ولمّا قال أيضاً : « كلما قلّ نصيب استحقاق النساء للشفقة عليهنّ ازدادت رغبتهنّ فى خلق هذه الشفقة فى القلوب

وإلهام هذه القلوب إياها . . . » صوّر طائفة يسيرة من روح المرأة فى صورة جديدة .

لقد كان « بورجه » أستاذ الروايات النفسية . إنها وصف النفوس وحالاتها ونشوؤها وتحوّلها وصفاً قوياً تعمق فيه كل التعمق، ففى روايته «أكاذيب» وصف كيف يكون حب النساء المنصرفات إلى الملاذ، أو حبّ النساء المنخفضات فى عصرنا هذا . وفى روايته « التلميذ » وصف ماذا تستطيع أن تنشئه العقيدة الفلسفية فى النفس التى عزمت على أن تطابق بين فكرها وعملها ففى هذه الرواية مائة وخمسون صفحة فى التحليل تكاد تكون أعجب ما كتب فى هذا الباب .

ومرّة يعرضون لتصوير غرائز النساء اللواتى يندفعن فى أعمالهنّ مطيعات لحمهنّ ودمهنّ ، إنهنّ ألاعيب الطبيعة وهنّ يجهلن القوة التى تدفعهنّ . وإلى القارىء صورة عاطفة من عواطف أحد الأشخاص الذين صورهم « موباسان » فى قصته : « اليد اليسرى » : « هل تعلم هذه المرأة فى معظم الأحوال ، هل تعلم هاته النساء، حتى أدقهنّ نظراً وأشدهنّ تراكباً لماذا يعملن!

إنهن يجهلن ذلك كما يجهل الدولاب لماذا يدور فى الهواء ، فكما تهب ريح غير محسوسة على هذا الدولاب فتدير سهمه المركب من حديد أو من نحاس أو من خشب فكذلك يظهر عامل من العوامل لا تدركه الحواس فيحرك قلب النساء المتقلب ويدفع هذا القلب إلى عزيمة من العزائم ، سواء أكانت هذه النساء من المدن أم من الأرياف أم من الضواحى أم من الصحراء .

وبعد هذه الحركات يستطعن أن يدركن ، إذا كنَّ يعقلن ويفهمن ، لماذا عملن هذا الأمر بدلاً من ذاك ، أما فى وقت تحركهنَّ للعمل فإنهن يجهلن سبب التحرك لأنهنَّ ألاعيب حواسهنَّ العجيبة فهن عبدات طائشات يخضعن للحوادث وللبيئات وللانفعالات وللاتفاقات التى تهتز منهنَّ نفوسهنَّ ولحمهنَّ ! »

وفى بعض الأحايين يتصدّى الكتّاب لمرضٍ من أمراض النفس فيصفون مبلغ تأثيره فى النفس ، قال « أناتول فرانس » فى وصف الحسد :

« يعمل فينا الحسد عمل الملح فى الجليد ، إنه يحل تجاليد الإنسان بمجامعها ويعجّل فى حلها تعجيلاً راعباً ، فمثل الحاسد كمثل الجليد فإن الحاسد ينحل فى الوحل ، فالحسد نوع من العذاب

والنار ، والحاسد محكوم عليه بالعذاب الذي يصيب من يريد أن يعرف كل شيء وأن يرى كل شيء ! »

ومرّات يصف كاتب من الكتاب مزاجاً من الأمزجة فيتجلّى في هذا الوصف روح عقيدة فلسفية بجملتها كما تجلى روح التفاؤل في وصف السيدة « سارسى » لمزاج والدها في مقال علق منه بالحفظ ما يلي :

« كان أبي ينهض بأعباء الحياة الثقيلة والابتسامة على شفتيه فقد كان جذل الظاهر والباطن يستقبل المحن وهو هادئ البال حتى كنت أقول في نفسي : أفلم تجر دمعة في قلبه ، وكان ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن فإذا حدث حادث واستطاع بعده أن يغط قلمه في الحبر ويتمم مقاله الذي بدأ به لم يبال بهذا الحادث مهما يكن عظيماً ، ومن رأيه أن لا يهتم الإنسان بأمرٍ قيمته نسبية ، فالذين هم من هذه الفطرة سعداء لأنهم يفخرون بسكوتهم في آلامهم ؛ كان قويّ الطبع ، وما دام قادراً على أن يعارك ويعلم ويقرع الناس ويقرعوه ويغمزهم ويغمزوه فالحياة في نظره حسنة طيبة » .

ولكن التعمق في التحليل لا يظهر في شيء ظهوره في وصف

حالة من حالات النفس كالفرح والكآبة والتغلغل إلى هذه الحالات وكشف الغطاء عن دقائقها المتباينة .

شهد مرّة « أناتول فرانس » رواية : هاملت ، فى المسرح الفرنسى فى باريز ، فتكلم على هذه الرواية فى كتاب من كتبه الخالدة : « الحياة الأدبية » قال فى جملة كلامه مخاطباً هاملت نفسه : لقد شعرت فى رؤيتى إياك يا أميرى بفرح كئيب ، وهو أكثر من الفرح الفارح !

قسم « أناتول » الفرح فى عبارته هذه قسمين : الفرح الكئيب والفرح الفارح أو الفرحان ، وهذا غاية فى دقة التحليل .

ومن هذا القبيل قوله فى الكآبة ، وقد تكلم على كتاب من كتب « لوتى » فقال :

« قصّ علينا « لوتى » أنباء الأسابيع الأخيرة التى قضاها فى بلاد اليابان ، إن فى قصصه هذا صفحات منتخبة ، لكنها غاية فى الكآبة ، وسواء أوصف البلد المقدّس « كيوتو » وألمح إلى معابده الآهلة بعجائب المخلوقات من قديم الدهر ، أم صوّر الجماعات الحسان فى « يدو » التى تنسحب على أذيال أوربة فى أزيائها

ورقصها ، أم مثّل لنا الإمبراطورة فى سحرها الغريب ، إنه ينشر فى صفحاته كآبة غامضة دقيقة نافذة ، تغشى قلبك كما يغشى الضباب الجوّ !

فغموض الكآبة ودقتها ونفاذها غاية فى التعمق فى معرفة حالات النفس .

وكما كانت الكآبة فى هذا المقام غامضة دقيقة نافذة ، فقد كانت فى مقام آخر ذات صفات مختلفة عن هذه الصفات ، فقد تكلم « أناتول » مرّة على « فلورى » الذى كان له فى النقد الأدبى وفى الصحافة المقام الأول ، كفّ بصر « فلورى » فى أواخر عمره ، فكان يزوره « أناتول » فى داره ، وفى زيارة من هذه الزيارات طاف « فلورى » حول مكتبته و « أناتول » قابض على ذراعه ، يدله على الطريق ، فكان « فلورى » يضع يده على كتاب من الكتب فيعرفه بمجرّد اللمس ، و إنه ليضع هذه اليد على كتاب اسمه : شيشرون ، إذ أخذت هذا الشيخ هزّة ، و بعد أن ذكر لأناتول تأريخ هذا الكتاب وكيف صار إليه قال أناتول :

« و إنه ليتكلم إذ بلّل الدمع عينيه ، وكنت معه وحدى

لا يراه غيرى ، فلمسنى بيده ، فكأنما اجتمعت لى الشيوخ كلهم فى صورته ، أفلا تلفنا ذكريات شبابنا الطائر بكآبة لطيفة لذيذة فى خاتمة حياتنا !» .

فأضاف « أناتول » إلى الكآبة فى هذا الموضع صفات اللطف واللذة ، وفى موضع آخر جعل لها صفات تختلف عن كل ما تقدم ، فقد نشر «موباسان» قصصاً سمَّاها : «اليد اليسرى» فى الوقت الذى نشر فيه « لوتى » رحلته إلى اليابان وسمَّاها : «يابانيات الخريف» . فقال «أناتول» فى قصص « موباسان » :

« إنها تترك فى القلب أثر الكآبة ولكن « موباسان » لا يفصح مثل « لوتى » عن كآبة الأشياء ، ولا يظهر عليه أن تفاوت قوانا وآمالنا يعمل فيه عمله ، فالحقيقة أنه خال من القلق على أنه ليس بجذل ، فالكآبة التى ينشرها إنما هى كآبة بسيطة ، قاسية ، صافية ! »

وكما يتجلى روح الفلسفة فى إمعانهم فى بواطن النفس ، وفى كلامهم على الغرائز وفى تصويرهم للأهواء وفى وصفهم للأمزجة وفى تحليلهم لحالات النفس ولدقائق هذه الحالات فكذلك يتجلى هذا الروح الفلسفى فى تعليلاتهم ، فبعد أن تكلم « أناتول »

على كآبة « لوتي » و « موباسان » أخذ يبسط أسباب هـذه الكآبة فقال :

« لقد أكلنا ثمر شجرة العلم ، ولم يبق منه في الأفواه إلا طعم الرماد ، وضربنا في مناكب الأرض وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفر ، وبان لنا اختلاف البشرية ورأينا أن هـذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تتشابه أرواحهم أرواحنا إلا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات ، ثم جلنا في الأحلام كل مجال فقلنا : ما هذه البشرية التي تتغير سحناتها وأرواحها وآلهتها بتغير مباءاتها ، ولمَّا كنَّا لا نعرف من الأرض إلا حقولها التي كانت تدرّ علينا الخيرات كانت هذه الأرض كبيرة في أعيننا فلمَّا عرفنا مقامها في العالم تصوّر لنا صغرها فقد علمنا أنها ما كانت إلا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منّا ، وكنّا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثّل لنا وأن في الكواكب والعوالم عجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . الحياة في ذاتها لا طويلة ولا قصيرة ، فالرجال الذين تغلب عليهم البساطة فيقيسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون وحقاً

ما يقولون إن الإنسان إذا مات بعد أن يخطه الشيب فقد شبع من عمره. أمّا نحن فماذا صنعنا، فقد شئنا أن نحزر عمر الأرض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الأرض وعلى أعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة، غرقنا فى بحر الزمن والمسافة، فتبيّن لنا أنّا لم نك شيئاً فثقل علينا هـذا الأمر ولم نشأ أن نقول شيئاً لكبريائنا فاصفرّت وجوهنا، والخطب الجلل أن إيماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة، ذهب رجاؤنا واضمحلّ أملنا، فلم نؤمن اليوم بالذى كان عزاء لآبائنا، وهذا شديد علينا، فقد كان الإيمان يجهم نفسها يطيب و يعذب.

وممّا زاد فى بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل، فإن الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الأمانى، فاستثارت بذلك مجهود الإنسان، وأصبح التزاحم على الحياة أشدّ من كل دهر، وصار الظافرون فيها أكثر حمقاً، والمنكسرون أعظم انكساراً، لقد أضعنا حبّ الخير بضياع الإيمان والرجاء، وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر، بحر العالم، فمن الذى يأتينا اليوم بالإيمان والرجاء وحب الخير!»

١
الأدب الوطنى

إذا كان حسُّ الطبيعة فى الأدب يؤدى إلى التعلق بالأشكال الظاهرة ويصرف العيون عن الأشكال الباطنة على نحو ما تقدمت الإشارة إليه فإنه من جهة ثانية يقوى صلة المرء بوطنه ، وهذه فضيلة من فضائله غير قليلة ، وأعنى بالصلة الوطنية فى هذا المقام ما يعنى بها شارل موراس فى كتابه : أفكارى السياسية ، فالوطنية فى رأيه إنما هى الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الأجداد والفضيلة التى تشتمل عليها الوطنية إنما هى حماية هذه الأرض ودفع الأجنبى عنها .

فالفرق بين الوطنية وبين القومية ظاهر ، فالقومية بدلاً من أن تكون غايتها محبة أرض الآباء والأجداد فإن غايتها محبة الآباء أنفسهم والحنو على دمهم وعلى ما أورثونا إياه من آثار عقولهم وأخلاقهم . . .

فالأدب الوطنى عبارة عن تصوير هذا الحنو الذى أشار إليه « موراس » فى تعريفه وهذا التقديس الذى ذكره . إن تعريفاً

مثل تعريف « موراس » للوطنية يخلو من كل تزويق ، فالوطني من يحنو على أرض آبائه وأجداده ويقدس هذه الأرض ويدفع الأجنبي عنها ، وعلى هذا الشكل فإن أساتيذ الوطنية إنما هم الكتاب والشعراء لأنهم يستطيعون وحدهم أن يتغنوا بوطنهم وأن يعلموا الناس محبة أشكال هذا الوطن وألوانه وأن يحملوهم على ذوق محاسن هذه الأشكال والألوان ، وعلى ما به فكل وطنية مجردة من هذا الحنو ، منسلخة من هذا التقديس إنما هي وطنية فارغة ، وعبثاً يحاول السياسي أن يدعى هذه الوطنية فمهما تكن أساليبه في هذه السبيل بارعة فإن وطنيته لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على محبة أرض آبائه وأجداده ، إنا لا ندفع الأجنبي عن أرضنا إلا إذا أشربت قلوبنا محبة هذه الأرض وتسلسل هذا الحب أحقاباً طويلة ، ولا يحسن إفراغ هذه المحبة على قلوبنا مثل الكتاب والشعراء ، فهم القادرون على تصوير محاسن الوطن ، وهم القادرون على قذف محبته في نفوسنا ، فلنقدس الأدب إذا أردنا تقديس الوطن . . .

لننظر كيف كان كتابنا وشعراؤنا يحنون على أوطانهم في متعاقب العصور .

٢

فى الجاهلية

آثرت العرب فى القديم سكنى البوادى والحلول بالبيداء، فلم تنحصر فى المدن والأبنية، فتراها فى خلال السنة تنتقل من برّ أفيح إلى مثله، فهى تسكن حيث تشاء دون أن تكون محكمة فى الأرض، فعافت الأبنية والتحويط وفضّلت التصرف فى الأرض والجولان فيها، فلم تألف وطناً بعينه، وإنما لها فى خلال فصول السنة أوطان شتى، وعلى الرغم من هذا الجولان فى الأرض نرى شعراء الجاهلية قد بكوا على عفاء ديارهم وانمحاء منازلهم وانقطاع دمنهم وحنّوا إلى ديارهم، وليس من الضرورى الاستقصاء فى أشعارهم حتى نعرف هذا البكاء وهذا الحنين فلا تكاد قصائدهم تخلو من آثار هذا كله.

إنى إذا ذكرت قول امرئ القيس:

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب نحوه ... وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

أدركت السرّ فى هذا البكاء فكأنما صاحب امرئ القيس قد مرّ بوطن غير وطنه ونزل بأهل غير أهله فاجتاز جبالاً وآجاماً

لا عهد له بمثلها من قبل فغلبت عليه الوحشة ، تلك الوحشة التى تغلب على صاحبها إذا ترك ربوعه ومرّ بأماكن قد خلعت عليها الطبيعة جلابيب العظمة مثل جبال طوروس التى مرّ بها صاحب امرئ القيس ومثل غابات الأناضول ، ولمّا أدركته الوحشة حنّ إلى أهله وبكى على فراق وطنه وودّ لو حملته الرياح إلى مضاربه . . .

لقد اشتمل شعر الجاهلية على أشياء غير قليلة من هذا النوع أكتفى بالإشارة إليها حتى قال الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان : وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب والمحل القفر والحجر الصلد وتستوخم الريف ، وترى الحضرى يولد بأرض وباء وموتان وقلة الخصب فإذا وقع ببلاد أريف من بلاده وجناب أخصب من جنابه واستفاد غنى حن إلى وطنه ومستقره .

٣

وطن محمد

ثم جاء القرآن وجاء بإشارة إلى منزلة الوطن فى النفوس، فمن آياته البينات: « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . فقرن الضنّ بالأوطان إلى الضنّ بمهج النفوس.

وإذا بحثنا عن الوطن الذى نشأ فيه سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، فإنا نجد أن أرض هذا الوطن لم تضحك سماؤها ولا اخضلّ شجرها ولا رفّت تعاشيبها ولا ماجت أنهارها وإنما نشأ فى صفاح جبال سودٍ تدخل الكآبة على القلوب تحت سماء كامدة اللون، بين صحارى صاهرة الشمس لا تأنس فيها العين بخضرة ربيع أو صفرة خريف ولا تنعم فيها الأذن بنوح عندليب أو بحفيف ورق أو بخرير ماء، فقد حرم الله سيدنا محمداً محاسن الطبيعية التى تفتح العقول وتلهم العبقريات وتوحى الكمالات.

وكأنى لا أزال أرى غار حراء الذى كان يتحنث فيه ، هذا الجبل الأسود الذى لم ينبت فيه نبت ولا اهتز فيه شجر كأنى لا أزال أرى هذا الغار الذى كان يفزع إليه فى خلواته هارباً من ضوضاء الحياة ، راغباً فى هدوئها . كنت أقول فى نفسى وأنا فى صفح حراء أفى مثل هذا الغار تنبثق عبقرية أم يبرع فضل أم يصفو ذوق أم ينمو شعور أم ترق عاطفة ، وإنى لا أذكر الطبيعة التى نعمت برؤيتها فى إيطاليه وسويسرة وفرنسا وإنجلترة ولا أفكر فى هذه العبقريات التى نشأت فى سهولها المديدة بين جبال شجيرة وأنهار مائجة وبحيرات باسمة وحدائق غلب إلاً ازدادت معجزة سيدنا محمد عظمةً فى عينى . أى رسالة توحى جبال مكة والمدينة ، أى نبوّة تلهم هذه القفار الرهيبة والرمال المتراكبة !

وعلى الرغم من هذا كله كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة وقفاره الصاهرة وسماءه العابسة ، وسواء عليه أرفت الطبيعة تحت سماء مكة أم كمدت ، وسواء عليه أنضّرت جبالها بالشجر أم جرّدت تجريداً ، وسواء عليه أآذته مكة أم لم تؤذه ، أنه أحبّ

كآبتها وظلمتها وكمدتها وأذّن فى الناس بالحج إليها فأتوها رجالاً
وعلى كل ضامرٍ من كل فج عميق فشهدوا فيها منافع لهم وذكروا
اسم الله فى أيّام معلوماتٍ وقضوا تفَثهم وأوفوا نذورهم وطوفوا
بالبيت العتيق !

٤

أبو قطيفة

وإذا تغلغلنا فى أدبنا وجدنا أن هذا الأدب لم يخل من الحنوّ على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد. وإذا كان المقام يضيق عن إشباع الكلام على الشعراء والكتّاب الذين حنوا على أوطانهم وقدّسوها تقديساً فلا أقلّ من إشارةٍ مختصرة إلى بعضهم حتى نستطيع أن نقابل بين بعض أدبنا الوطنى و بين بعض أدب الإفرنجة فى هذا المعنى .

✡ ✡ ✡

أبو قطيفة شاعر من شعراء بنى أمية أخرجوه من ثلاثة عشر قرناً من وطنه ، فأذاب الهمّ قلبه وأتى عليه فرط النزاع على نحو ما يصيب الذين يحوّلونهم إلى غير أوطانهم .

لما شمّر عبد الله بن الزبير للخلافة ودعا الناس إلى بيعته نفى بنى أمية عن المدينة إلى الشأم .

وكان أبو قطيفة المعيطى مع من نفاهم ، وأبو قطيفة هذا من العنابس ، من بنى أمية .

قدم الشام أبو قطيفة وفيها بنو أُمية ، فيها عزُّ خلافتهم وبشاشتها ، فهل ألهته قصور يزيد بن معاوية فى دمشق عن قصور المدينة وآطامها ؟

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون
إلى البلاط فما حازت قرائنه دور بعدن عن الفحشاء والهون !

فلم تشغله أبواب جيرون فى ظلال مسجد بنى أُمية فى دمشق عن قصر سعيد بن العاص وعن نخله ، وعن الجمَّـاء وغير ذلك من أماكن المدينة .

يبعد المرء عن مائه وأرضه وسمائه ، وقد يَرِدُ ماء أعذب من مائه وترحبّ به أرض أكرم من أرضه ، وتظلّله سماء أضحك من سمائه ولكن المرء لا يبعد عن أى ماء ولا عن أية أرض ولا عن أيّة سماء ، وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذى ورده آباؤه وأجداده وعن هذه الأرض التى اشتملت على عظام قومه ورفاتهم وعن هذه السماء التى باركت لهؤلاء القوم ، إنهم يبعدونه عن لحمه ودمه وعظمه ، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته !

هل كان يعوز أبا قطيفة وهو فى دمشق بين إخوانه وعشيرته شىء من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء ؟ أما كان فيها

عزيز الجانب موفور الكرامة والخليفة أموى والقوم أمويون !

أجل ! كان يعوزه شيء أعظم من هذه الأمور المادية ، كان يعوزه مراتع رتعت فيها أفكاره وعواطفه فى صباه .

فلننظر كيف كان يذكر هذه المراتع التى رتعت فيها خواطره فى الماضى .

لمـّا حنّ وهو فى دمشق إلى القصر وإلى النخل وإلى الجمّـاء كانت عاطفته فى هذا الحنين مجرّدة من كل تزويق ، فالمدينة أشهى إلى قلبه من أبواب جيرون فى دمشق ، وإذا أحببنا أن نستنبط علّة هذه الشهوة وجدنا أن السبب فيها بُعد دور المدينة عن الفحشاء والهوان !

عاطفة بدوية ، منزّهة عن الفحشاء ، خالصة من الذل ، هذا شكل من شعر أبى قطيفة الوطنى فلنلتمس لنا شكلا آخر من هذه الوطنية :

بكى أحد لما تحمل أهله فكيف بذى وجد من القوم آلف
من أجل أبى بكر جلت عن بلادها أميـــة والأيام ذات تصارف

وأبو بكر هذا إنما هو عبد الله بن الزبير ، فقد كان يكنى بأبى بكر ، ففى هذا الشعر شكل غير الشكل الأول ،

لقد جعل أبو قطيفة فى هذه الأبيات حياةً للطبيعة على نحو ما يفعله شعراء الإفرنجة فى فيض خواطرهم وصوب قرائحهم ، فقد شرك الطبيعة فى عاطفته وشعوره وألمه ، لقد استحكمت الأُلفة بين جبال المدينة و بين الذين أُخرجوا منها ، فبكت هذه الجبال بعد جلائهم وحنّت إليهم .

كان أبو قطيفة فى دمشق مشغول الفكر ، لا يدرى هل بقيت قصور وطنه على حالها أم تغيّرت :

ليت شعرى ، هل البلاط كعهدى والمصلّى إلى قصور العقيق !

لقد كان فى هذا الشعر الكريم يخرج من هذا النوع من الوطنية إلى نوع آخر من القومية فكما بكى على أرض آبائه وأجداده وحنّ إليها فكذلك بكى على قومه أنفسهم واشتاق إليهم :

وهل برحت بطحاء قبر محمدٍ أراهط غُرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبى وصفو مودّتى ومحض الهوى منى وللناس سائره

وقد ردّد هذه النغمة فى مقام آخر حيث قال :

أقطع الليل كلّه باكتئاب وزفير ، فما أكاد أنام
نحو قومى إذ فرّقت بيننا الدا رُ وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عَنَت الدهـ ـــر وحرب يشيب منها الغلام

فما أرقّ هذه القومية ! لا يكاد أبو قطيفة يملكه غمض الليل وهو فى دمشق ، ولماذا هذا الأرق ؟ إنه يخشى أن يصيب قومه عَنَت الدهر ، وإنه يخشى الحرب بينهم فهو كئيب البال الليل كله ، لقد كان قلبه مشتتاً فى الحنين إلى أرضه مرّة و إلى قومه مرّة ، كان مشغول الفكر بالحجاز يضرب بعينه إلى السماء حتى إذا رأى السحاب متوجهاً نحو الحجاز هاج شوقه واشتد نزاعه:

إذا برقت نحو الحجاز سحابة   دعا الشوق منى برقها المتيامن

لم تقع عينى من شعر أبى قطيفة إلاّ على أبيات قلائل فى الأغانى ، ولـكن هذا القدر اليسير من الشعر يحتوى على أشياء كثيرة من الوطنية ، و إذا كانت الوطنية على مصطلح عصرنا ضرباً من الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد فأبو قطيفة قتله هذا الحنوّ والتقديس ، لقد جمع فى شعره بين الوطنية والقومية ، فتغنى بأرض آبائه وأجداده و بكى على عشيرته و إخوانه وما أشد الحالة التى كان فيها بعد أن أخرجوه من المدينة وقذفوا به إلى الشام :

أحنّ إلى تلك الوجوه صبابةً   كأنى أسير فى السلاسل راهن

وهل من حالةٍ أشد من حالة الأسر ، فكيف يكون ليل

الأسير ونهاره إذا كان هذا الأسير شاعراً رقيق القلب ، لطيف الحس ؟ والمؤلم فى هذا كله أن أبا قطيفة بعد فرط هذا الحنين وبعد هذه الدموع التى سكبها على وطنه وعلى قومه أذن له ابن الزبير فى الرجوع إلى المدنية لأنه عطف عليه لما بلغه شعره وقال : من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع ، ولـكنه مات فى الطريق قبل أن يتمتع من هذه الأرض التى أحبَّها ومن هؤلاء الإخوان الذين أحبَّهم .

إلاَّ أن حبَّه لأرضه وعشيرته لم يمت ، فقد بقى خالداً فى هذه الأبيات القليلة التى تناهت إلينا ، وهذا صداه بعد أن أتى عليه ثلاثة عشر قرناً ، فرحم الله شاعرنا الأموى ورحم الله وطنيته الكريمة .

٥

الجاحظ — البحترى — ابن الرومى — المتنبى

ثم جاء عصر بنى العباس ، فاختمرت الفكرة الوطنية فى القلوب ، حتى ألف بعض الكتاب رسائل خاصة فيها ، ورسالة الجاحظ فى الحنين إلى الأوطان مشهورة وهو الذى يقول فيها :

« وأنت لو حولت ساكنى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السهول إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم الهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع » .

فالجاحظ الذى يقول مثل هذا القول صاحب نزعة وطنية ، وقد ذهب فى نزعته مذهباً بعيداً ، فجاز من وطنه الأصغر وهو البصرة إلى وطنه الأكبر وهو جزيرة العرب ، فمن بعض كلامه :

« وأنا أقول فى هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل : أرجو ، لأنى أعلم فيه خللا ، ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب ! » ،

فما أعذب قوله : دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى ! ما أعذب هذه الياءات كلها ! إنها تدل على ولع صاحبها بقومه

وَكَلَفه بوَطنه ولهجَه بلغته ، فقد جعل من جزيرة العرب ملكاً خاصًّا به حبس عليه قلبه .

٭٭٭

وكان البحترى متشوقاً يتذكر آلافه ، وكانت له نفس تتبع أوطانها ، فقلبه فى أدبه الوطنى رقيق ، وشعره فى هذا المعنى نضير اللون لأن صاحبه ربيب الحضارة والحدائق والقصور فإذا حنَّت ركابه وهو فى العراق إلى الشأم فقد كانت تحن لأنها يشوقها برد الشأم وريفه وتشوقها مدافع الساجور وتقابل تلاعه وكهوفه على ضفتيه فطالما هاجه خيال زاره من هذه الأماكن كلها ، ما يغب مطيفه ، وطالما حنّ إلى قصور البليخ وأفدانها وإلى صوامع زكّى ورهبانها .

٭٭٭

أمّا ابن الرومى فقد كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم ولا يفهمون العلّة فى ذلك حتى أوضحها لهم فى قصيدة لسليمان بن عبد الملك بن طاهر يستعديه على رجلٍ من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

عهدت به شرخ الشباب ونعمة — كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم — مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم — عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فوطنيته فى هذه الأبيات قريبة من وطنية عصرنا هذا .

* * *

ولقد تغنَّى المتنبيء بجزء من أرض آبائه وأجداده على الرغم من تردده فى الحنين إلى الوطن ، وعلى الرغم من تناقضه أحياناً فى هذا الحنين ، فقد أحبَّ حمصاً إلى خُناصرة لأن كل نفس تحب مَحْياها ، وتذكّر مصيفه فى حمص ومشتاه فى الصحصحان على النحو الذى يصيف عليه أهل البدو ويشتون فالأثر الذى أبقاه فى أدبه الوطنى إنما هو أثر بدوى لأنّ أبا الطيب كان ابن البادية وربيب القبائل ، وقد بقيت فى ذهنه صور البادية كل عمره فلا يهمه فى مصيفه فى حمص ومشتاه فى الصحصحان إلاّ روضة ترعاها خيله وحِلّة يغزوها وعانة يصيدها وقطعة من الإبل يسطو عليها !

٦

ابن الساعاتى

ولكن الشاعر الذى كان منقطع النظير فى النزعة الوطنية إنما هو ابن الساعاتى .

لم يُختم الشعر بالمتنبيء ، ولا ختم بالمعرى ولا بالشريف الرضى ولا بكشاجم ولا بابن الخياط الدمشقى . لقد ظهر شعراء بعد هذه الطبقة المبرّزة المبدعة ، ولئن كان لكل واحد من المذكورين ميدان يجول فيه وأفق يطير إليه ، فقد ظهر بعدهم شاعر انفرد بميدانه و بأفقه ، ظهر ابن الساعاتى الدمشقى فى القرن السادس ، عصر صلاح الدين الأيوبى ، وأخلق بشاعر مثل ابن الساعاتى ، ينشأ فى عصر مثل عصر صلاح الدين أن يأتى بقلائد تشبه قلائد المتنبئ فى سيف الدولة ، لئن كان سيف الدولة حصناً حصيناً فى وجه الروم ، لقد كان صلاح الدين مثل هذا الحصن فى وجه الصليبيين ، ولكن سيف الدولة خلقه الله وخلق له المتنبئ حتى يخلد غزواته وحروبه ، فهو وشاعره متلازمان ، أما صلاح الدين فلم يكن له نصيب من ابن الساعاتى فى تخليد حروبه فليس لنا

أن نفتش فى شعر ابن الساعاتى عن قصائد نسمع فيها صهيل الخيل وقعقعة اللُجُم وصرير العوالى كما سمعنا هذه الأنغام فى شعر المتنبى فما هو من فرسان هذا الميدان ، ولكنه فارس ميدان لم يجل فيه غيره جولته ولا برّز فيه تبريزه فقد أرسله الله فى عصر اختمرت قبله لغة الشعر كل الاختمار ، فما على ابن الساعاتى إلاّ أن يغرف من بحرها الخضم وما عليه إلا أن يُصرّف هذه اللغة الناضجة فى أشرف الغايات وأسماها ، فلست بمتعرضٍ فى هذا الباب لفنون شعره ولما اشتملت عليه هذه الفنون من مدح أو غزل أو رثاء وإنما أريد أن أشير فى هذه الكلمات المختصرة إلى ناحيةٍ من شعره ظهر مثلها فى عصرنا هذا وكنّا نظن أنا المخترعون لها ، السابقون إليها ، وإذا بابن الساعاتى يردّنا إلى الصواب ، لم ينبت شعرنا الوطنى فى العصر الذى نعيش فيه ، وإنما نبت هذا الشعر من عصورٍ بعيدة ، لقد تغنى الشعراء بأوطانهم فى أحقاب متطاولة ، كما بيّنت ذلك فى أول هـذا الفصل ، ولكن ابن الساعاتى برع فى هذا الباب، لقد تغنى بوطنه أعذب غناء ، فلست ذاكراً من شعره الغزير إلاّ هذه الناحية وحدها ، فقد تفنن فيها ، وكثرت محاسنها فى آفاقها ، وإذا

أردت أن أختار له صفة اختصه بها فلا أسميه إلاَّ شاعر الوطنية ، فما عرف أحد من الشعراء فضل الوطن معرفته ولا نعم بفتنة الطبيعة نعمته ولا ألف أفياءه أُلفته ولا اشتاق إلى أرضه وسمائه اشتياقه ولا ذكر إخوانه في ظلاله ذكره لهؤلاء الإخوان فابن الساعاتي ذاب في محبة وطنه ، ذاب في محبة دمشق ،ومتنزهات دمشق ، ذاب في محبة كثبانها وبانانها وآصالها وأسحارها ونسيمها وجوها وخمائلها وجنّاتها ودوحها وبلابلها وظلها ومائها وتربها وحصاها ونرجسها وبهارها ووردها وبنفسجها وجلّنارها ورمّانها ، ذاب في هذه المحاسن كلها وذابت هذه المحاسن في شعره فلست ترى في هذا الشعر الوطني إلاّ آثار منازل لهوٍ في دمشق ماتت فيها الكروب أو صور طبيعة نفخت فيها الحياة حتى غدت لمياهها قلوب تعشق بها وتحب ولدوحها معاطف تشبه معاطف الراقصات ، وحتى غدا الدوح في هذا الشعر يهزه نغم القماري ويميل من مرح الشباب إلى الدلال ، لقد ملكت دمشق على ابن الساعاتي قلبه ولبه فإذا غاب عنها بكى على شرخ شبابه وعلى أيام جهله فيها وشكا تلون عهود أهلها واشتاق إليهم ورجا أن يقرّب الله مزارهم فهو لا يسلو عنهم ، إنه وافٍ لمن غدر منهم

حافظ لعهود من ضيّع كل عهدٍ ، وقد يشتد به الشوق إلى دمشق وإلى محاسن دمشق وإلى أهل دمشق فيتمنى وهو فى مصر لو تمرّ غادية شامية تحمل إلى نفسه عن أهل دمشق مُنى هذه النفس ، وتنقل إليها أحاديث الحب ، لقد خلق الله له نفساً حرّة تصبو إلى إخوانه وتبكى إذا غابت عن هؤلاء الإخوان :

وما أرقّ شعور ابن الساعاتى ! ما ألطف حسه ! ما أشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ! فقد أعطاه الله عيناً لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة وأنفاً لا يفوته شىء من شميم روائحها الطيبة وأذناً فتنت بسماع ألحانها وأنغامها ولقد أعطاه الله شيئاً أجلّ من هذا كله ، أعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة وعلى إحيائها فى شعره ، فهو شاعر الوطنية الدمشقية ، شاعر طبيعة دمشق وخمائل دمشق وبلابل دمشق وكل جزء من أجزائها وكما رزقت دمشق الخلود فى البلدان فقد رزق شاعرها الخلود فى الشعراء ، فإنه صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب ؛ هذه هى الناحية التى شغلتنى فى شعر ابن الساعاتى عن كل نواحيه الشعرية ، ولقد يذهب الشاعر فى فنون شتّى ، فيضعف فى أكثرها ويقوى فى واحد منها فيجيئه الخلود من هذا الفن

الذى قوى فيه ، وابن الساعاتى خالد من ناحية شعره الوطنى وهى كافية ، إنه ليس فى حاجة إلى غيرها ، فهو خالد من هذه الناحية التى يحن فيها إلى أخلائه :

وجيرة السفح من لبنان جادكم ... نظير دمعى إذا ما انهلّ أوهطلا
تلوّنت مثل أيامى عهودكم ... واستبد لونى ولم أطلب بهم بدلاً
مهىً خلعت الصبا والشمل مجتمع ... خلع الرداء على أيامهم حللا
سموا الظلام على أقماره شعراً ... ويانع الورد فى أغصانه خجلا
واهاً لشرخ شباب كنت مغتبطاً ... به وعمر وصالٍ كان مقتبلا
شكوت أن هزّنى ذو منظر بهج ... أو لذّ صفو حياةٍ بعدكم وجلا
كم موقف مثل حدّ السيف دونكم ... مضيت فيه وحدّ السيف قد نكلا
وزورة لى وعين النجم ناعسة ... من السرى وخضاب الليل ما نصلا
جهلت فيها فأدركت المنى كثباً ... وإنما يدرك اللذّات من جهلا
وإن نار الهوى بالدمع ما خمدت ... كما زعمتم وجرح الشوق ما اندملا
آهاً لقلب أسير فى رحالكم ... نصحته فيكم جهدى فما قبلا

وهو خالد من هذه الناحية الثانية التى يقول فيها :

يا أخلاى وإن شطّ بنا ... حادث الأيام عنكم وثناها
حبّذا غادية شاميــــة ... حملت عنكم إلى النفس مُناها

ما حداها الرعد إلاَّ قصَّرت — شقة الفسطاس ممدود خطاها
وجد القطر سهاماً فرمى — ومن البرق سيوفاً فانتضاها
فأصابت مقلة داميـــــــة — وفؤاداً طال فيكم ما اتقاها
نقلت عنكم أحاديث الصبا — فأقرَّ الله عينىْ من وعاها
بلغت عنكم شفاهـــاً حبذا — حبذا ما بلغت عنكم شفاها
لا تلم عينى على طول البكا — كيف لا تدمع والبين قذاها
وقليب القلب ما زال به — فاتحاً إنسانها حتى أماها
طال ليلى طول وجدى بكمُ — فزمانى ليلة مات ضحاها
لو يسير الطيف فى أثنائه — وهو الطيف — أو النجم اتاها
ما على ماطل دينى لو قضى — وعلى قاتل نفسى لو وَداها
فقرها إلاَّ اليـكم مشتهى — وجميل عنكم إلاَّ غناها
وجدت من نأيكم ما وجدت — فإلى عالم بثى مشتكاها
قسماً ما بقيت عن سلوة — إنما يحمل عنها من بلاها
أمر الدهر عليهـا ونهى — يأمر الحرص بما ينهى نهاها
دعوة الشوق لكم مسموعة — فإذا ما هتفت كنت صداها

٧

الوطنية فى أدب الغرب

ولكن شعراءنا المتقدمين ، على الرغم من هذا الصباغ الوطنى الذى تبرق ألوانه فى شعرهم أو تكمد لم يبلغوا فى تقديس أوطانهم مبالغ الإفرنجة ، فلم يقبّلوا فى قصائدهم هذا التراب الذى غذّى أممهم في الماضى ، أفلا نعلم أن كل ناشىء من نشء هذه الأمم قد أبقى فى هذا التراب أثراً من الآثار ، فلا فرق بين جزء وجزء من هذا الوطن ، إنه واحد لا يتجزأ ، وكأنّ كل مدينة من مدنه وشى منقوش على ثوب الوطن ، فلا تقع العين على أى قصرٍ من قصوره وعلى أى مسجد من مساجده وعلى أى هرم من أهرامه من دون أن يذهب الفكر إلى آلاف من أهلنا الذين مضوا ولم نعرفهم . فى أجزاء هذا الوطن نشأت لغتنا ولهجتنا ، فلم نعرف كيف ننفخ روحاً فى كل شكل من أشكاله ، فى غدرانه وغابه وقصوره ، ولم نعرف كيف نحيي أى لونٍ من ألوانه.

إن مدن الوطن فى نظر الإفرنجه بمنزلة الكتب ولكنها كتب مصورة ، يقرأون فيها أخبار أجدادهم ويرون فيها صور هؤلاء

الأجداد ، إنهم يقدسون دور أحقر مدينة من مدنهم لأن هذه الدور قد أوى إليها الحب والبغض واللذّة والألم فى قرون متوالية، إنها تحتفظ بأسرار رهيبة وتعرف أشياء كثيرة عن الموت والحياة ولوكانت حجارتها تتكلم لقالت لأهلها أشياء تضحك وأشياء تبكى، ولكن الحجارة لا تكلّم إلاّ الذين يعرفون كيف يصغون إليها ، هذا ما قاله أحد كتَّاب الغرب فى بعض كتبه .

كيف يحنو أدباء الإفرنجة على أوطانهم ؟

من أقوال « جول لومتر » :

« إذا سمعت الناس يرفعون أصواتهم فى الكلام على محبة الوطن جمدت مكانى وطويت حبى فى قلبى حتى يكون فى عزلةٍ عن ترّهات البيان التى تجعل منه حباً باطلاً فارغاً ، ولكنى إذا وقفت فى منعطف من منعطفات الساقية وأحاط نظرى بنهر « اللوار » المنبسط أمامى بحدائقه وحوره وجُزُره المذهبة وقصبه الأزرق وسمائه الخفيفة وهوائه اللطيف ثم امتدّ هذا النظر فرأى على مقربة من النهر فى هذا البلد المحبوب ، بلد ملوكنا القدماء ، قصراً مصقولا كما يصقل الجوهر ، يذكرنى وطنى القديم وما كان عليه فى العالم شعرت حينئذٍ بفرط الحنوّ على هذه الأرض حيث

نبتت لى فى كل ناحية من نواحيها فروع كأنّها غاية فى الدقة والقوّة » .

ولما سمع « أناتول فرانس » هذا الطراز من الكلام اشتهى أن يكون هو قائله واشتهى خاصّة أن يكون قائله على هذا الوجه نفسه فإنه يرى أن دين الوطنية لا يتمّ إلاّ إذا أدخل صاحبه على شريعته المقدّسة أمثال هذه الوسوسات اللطيفة التى تجعل لكل المعتقدات نوعاً من الحياة والفتنة ، فالوطنية المجرّدة فاترة فى نظر بعض الذين تهزّهم الأشكال والألوان ، فلا يحبون من الوطن إلاّ ما يمكن أن تحيط به العيون .

و بلغ من حنوّهم على أوطانهم أنهم جعلوا الطير جزءاً من أدبهم الوطنى فقد نام « موريس بارس » ذات يوم على العشب فى مدينة « كومبورغ » ولمّا استفاق من نومه رأى أن الشمس قد انحدرت وكان طائر الربيع ، وهو ما نسميه فى الشام : السنونو ، يقطع صفحات الغدران . فنظر إليه « بارس » نظرات ملؤها الحب لأن هذا الطائر فى معتقده جزء من أدبه الوطنى . فإن أساليبه فى تتبع الحشرات وفى الانقضاض فى الهواء مرة وعلى وجه الماء ليبلّ جناحيه وفى تشبثه بالقصبات التى تنعطف

من خفته بعض الانعطاف وتغمرها أغاريده الغامضة . إن هذا كله يوحى إلى أساتيذ البيان موضوعاً من الموضوعات .

ولكن ألوان الصباغ الوطنى تكاد تنطق فى هذا الكلام الذى تقوله مدينة « أو » الصغيرة لجماعة السيّاح الذين يشاهدونها من رأس التل الواقعة عليه ، وقد روى لنا كلامها « أناتول فرانس » : « انظروا ! إنى قديمة ، ولكنى حسنة . لقد شيّد أولادى الأتقياء على تربتى بروجاً وقصوراً وأنشأوا النواقيس . إنى أم صالحة أعلم الناس العمل ومجامع فنون السلام . وأغذّى أبنائى على ذراعىّ . فإذا انقضى عملهم درجوا واحداً بعد واحد فرقدوا على مقربة من قدمى تحت هذا العشب الذى ترعاه الغنم إنهم يمضون ولكنى باقية لأحتفظ بذكراهم فأنا منهم بمنزلة ذاكرتهم ولهذا فإن لى عليهم حقوقاً كثيرة لأن الرجل لا يكون رجلاً إلا إذا كان يتذكر الأمور . لقد مُزّق ردائى وطعنت فى ثديى فى الحروب ولكنى عشت لأنى أملتُ . فتعلموا منى هذا الأمل المقدّس الذى ينجّى الوطن ، فكّروا فىّ لتفكروا فيما وراء نفوسكم . انظروا إلى هذا الصهريج وإلى هذا المستشفى . وإلى هذه السوق التى تركها الآباء للأبناء . واعملوا لأبنائكم كما عمل

أجدادكم لكم . فكل حجر من حجارتى يجلب الخير لكم ويعلمكم الواجب . انظروا إلى كنيستى وإلى دارى العامة وإلى مستشفاى . بجّلوا الماضى ولكن فكّروا فى الآتى . وسيعلم أبناؤكم بالحِلَى التى وشيتم بها ثوبى الحجرى » .

٭٭٭

أظن أن أدبنا الوطنى لا يزال مفتقراً إلى أشباه هذا الشعور العميق وهذه العاطفة الدقيقة !

ببيان مثل هذا البيان ترسخ محبة الأوطان فى القلوب .

اقرأ

تصدر منذ يناير ١٩٤٣

السلسلة الشعبية الأولى التى تبث رسالة الفكر فى الجمهور وتعمل على توجيه الشعوب العربية إلى طريق الخير والحق والجمال.

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » . . .
- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .
- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهى ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٠ مليما	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

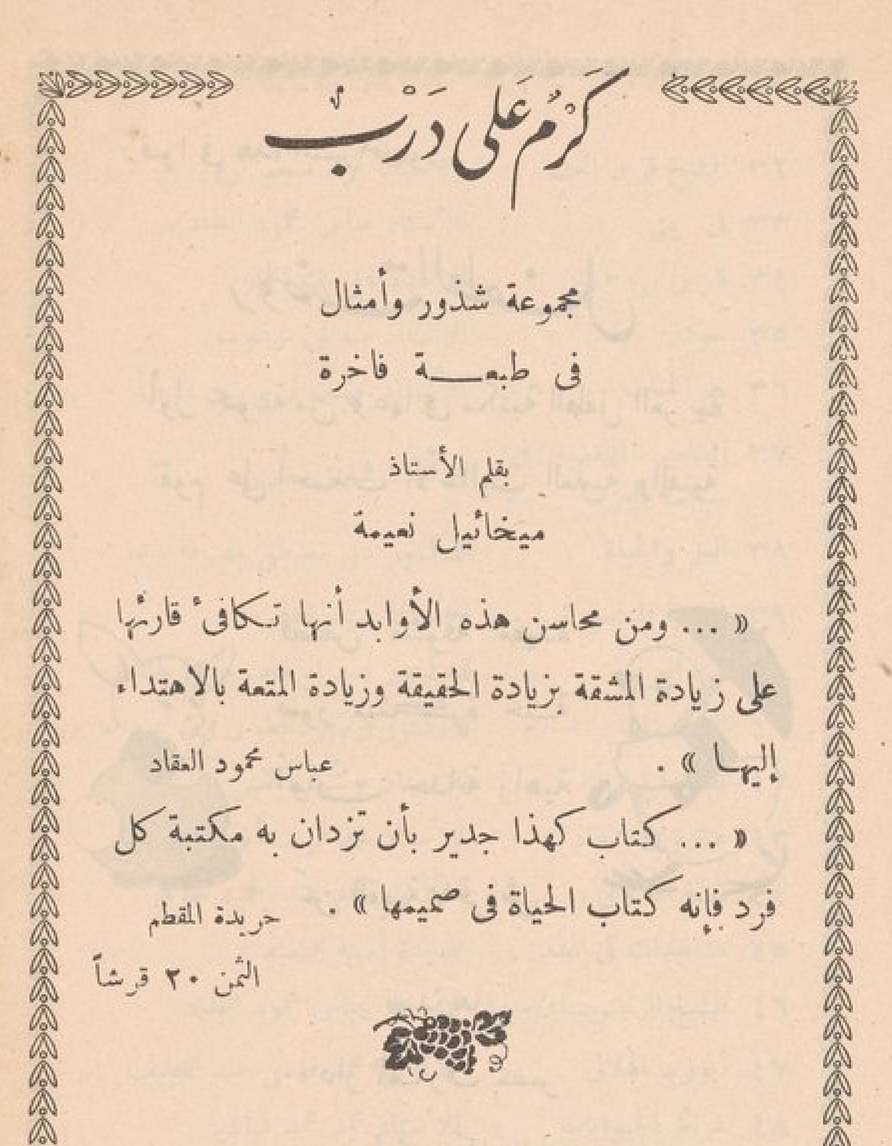
اقرأ

المؤلفات التي ظهرت في هذه السلسلة

١	أحلام شهر زاد	للدكتور طه حسين بك
٢	شاعر الغزل	للأستاذ عباس محمود العقاد
٣	مذبح المسرح	للأستاذ فؤاد صروف
٤	عود على بدء	« إبراهيم عبد القادر المازني
٥	دستويفسكي	« حسن محمود
٦	شاعر ملك	« علي الجارم بك
٧	الشاعر الرجيم	« عبد الرحمن صدقي
٨	مذكرات دجاجة	للدكتور إسحق موسى الحسيني
٩	المذاهب السياسية المعاصرة	للأستاذ علي أدهم
١٠	شفاء النفس	للدكتور يوسف مراد
١١	الكون العجيب	للأستاذ قدري حافظ طوقان
١٢	سنوحي	للدكتور محمد عوض محمد
١٣	جميل بثينة	للأستاذ عباس محمود العقاد
١٤	من يوميات فتاة عصرية	« حسين شوقي

١٥	بايرون	للسيدة أمينة السعيد
١٦	دمشق	للأستاذ محمد كرد على
١٧	شكسبير	للأساتذة محمد فريد أبو حديد وزكى نجيب محمود وأحمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	للأستاذ يحيي حقى
١٩	سيدة القصور	« على بك الجارم
٢٠	الملك فاروق*	« كريم ثابت بك
٢١	أبو نواس	« عبد الحليم عباس
٢٢	جحا فى جانبولاد	« محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبى العلاء	للدكتور طه حسين بك
٢٤	لافوازييه	للأستاذين عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين
٢٥	قصة البنسلين	للدكتور مصطفى عبد العزيز
٢٦	العشاق الثلاثة	للدكتور زكي مبارك
٢٧	بغداد مدينة السلام	للأستاذ طه الراوى
٢٨	بوشكين	« نجاتي صدقى
٢٩	النار والنور	للأستاذ أمين إبراهيم كحيل
٣٠	قطر الندى	للأستاذ محمد سعيد العريان
٣١	الغزالى	للأستاذ طه عبد الباقى سرور

٣٢	الشيخ قرير العين	للأستاذ كرم ملحم كرم
٣٣	فى بيتى	للأستاذ عباس محمود العقاد
٣٤	فارس بنى حمدان	للأستاذ على بك الجارم
٣٥	جوتة	للأستاذ صديق شيبوب
٣٦	مع الحيات	للأستاذ حسين فرج زين الدين
٣٧	العناصر النفسية فى سياسة العرب	للأستاذ شفيق جبرى
٣٨	العلم والحياة	للدكتور على مصطفى مشرفة باشا
٣٩	المدينة المسحورة	للأستاذ سيد قطب
٤٠	مهد العرب	للدكتور عبد الوهاب عزام بك
٤١	الفيتامينات	للدكتورين م. ر. الطوبى وم. عبدالعزيز
٤٢	قصة عبقرى	للأستاذ يوسف العش
٤٣	عنترة بن شداد	للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك
٤٤	قصة العدوى	للدكتور محمد عبد الحميد جوهر
٤٥	مشاهدات فى الهند	للسيدة أمينة السعيد
٤٦	الشيخ الرئيس ـ ابن سينا	للأستاذ عباس محمود العقاد
٤٧	أبوزيد الهلالى	للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف
٤٨	غرائز الحيوانات	للأستاذ محمد محمد فياض
٤٩	بين البحر والصحراء	للأستاذ شفيق جبرى


كرم على درب
مجموعة شذور وأمثال
فى طبعة فاخرة
بقلم الأستاذ
ميخائيل نعيمة
« ... ومن محاسن هذه الأوابد أنها تكافئ قارئها على زيادة المشقة بزيادة الحقيقة وزيادة المتعة بالاهتداء إليها » .
عباس محمود العقاد
« ... كتاب كهذا جدير بأن تزدان به مكتبة كل فرد فإنه كتاب الحياة فى صميمها » .
جريدة المقطم
الثمن ٢٠ قرشاً
ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

لطلاب السنة التوجيهية

التوجيه فى الأدب العربى

وضع الأساتذة

على الجارم بك ومحمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو بكر إبراهيم ومحمد السيد عامر وعبده زياده عبده وحسنين حسن مخلوف

الثمن ٧ قروش

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مؤلفات فى علم النفس

مـ		
٤٥	مشكلة السلوك السيكوباتى	للدكتور صبرى جرجس
٣٥	علم النفس الفردى	للأستاذ إسحق رمزى
١٠	علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم	للأستاذين على الجارم بك ومصطفى أمين بك
٣٠	مشكلات الأطفال اليومية	تأليف الدكتور دجلاس توم وتعريب الأستاذ إسحق رمزى
٢٠	مجلة علم النفس	رئيسا التحرير الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور

تحت الطبع

الإدراك الحسى عند ابن سينا	للأستاذ محمد عثمان نجاتى
مبادىء علم النفس العام	للدكتور يوسف مراد

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



دار المعارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض ببيروت